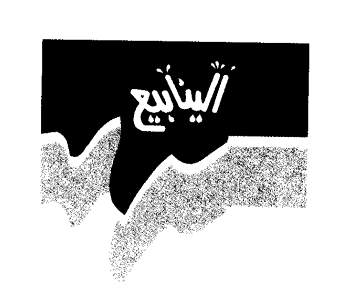
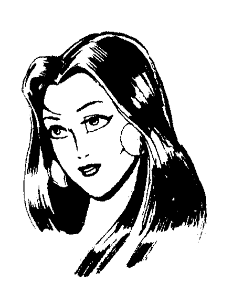


بَدْر البُدور

الدكتور نبيل راغب





الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١

قالَ الْمَلِكُ شَهْرَيارُ لِشَهْرَزاد : « أَسْمِعيني اللَّيْلَةَ قِصَّةَ بَدْرِ البُدور ، الَّتي وَعَدْتِني بها . »

تَأَلَّقَتِ ابْتِسامَةُ الثِّقَةِ والفَخْرِ في عَيْنَيْ شَهْرَزاد وهِيَ تَقولُ :

بَلَغَني ، أَيُّها الْمَلِكُ السَّعيدُ ، أَنَّهُ كانَ بالبَصْرَةِ والٍ يُدْعى مُحمَّدَ بْنَ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيّ ، وكانَ يُحِبُّ الفُقَراءَ ويَرْفُقُ بالرَّعِيَّةِ ، ويَهَبُ مِنْ مالِهِ لِمَنْ يُحِبُّ الخَيْرَ لِلآخَرينَ ويُساعِدُهُمْ في أَوْقاتِ شِدَّتِهِمْ. وكانَ لَهُ وَزيرانِ ، أَحَدُهُما يُقالُ لَهُ الْمُعينُ بْنُ ساوي ، والثّاني يُقالُ لَهُ الفَضْلُ بْنُ خاقان .

وكانَ الفَضْلُ بْنُ خاقان أَكْرَمَ أَهْلِ زَمانِهِ ، حَسَنَ السّيرَةِ ، أَجْمَعَتِ القُلوبُ عَلى مَحَبَّتِهِ ، واتَّفَقَ العُقَلاءُ عَلى مَشورَتِهِ . كانَ عاشِقًا لِلْحُرِّيَّةِ وعَدُوًّا لَدودًا لِلْعُبودِيَّةِ ، فَأَعْتَقَ كُلَّ الجَواري والعَبيدِ الَّذينَ عَملوا في خِدْمَتِهِ . كَذَلِكَ كانَ مُتَواضِعًا ، وكَثيرًا ما حاوَلَ أَنْ يَبُثَّ

بَدْر البُدور

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : شركة أبو الهول للنشر
٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٦٠٨ ، ٣٩٢٠٦١٦
١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٩٢٤٨٣٩

الطبعة الأولى ١٩٩٨

رقم الإيداع ١٩٩٨/١٥١٠٠
الترقيم الدولي ٧ - ٠٣٤٧ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

رسوم : يوسف راغب

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

هَذِهِ الرّوحَ في ابْنِهِ عَلِيٍّ نورِ الدّين ، لَكِنَّهُ لَمْ يُحَقِّقْ ما تَمَنّاهُ ، وعَلَّلَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ طَيْشُ الصِّبا الَّذي سَرْعانَ ما يَنْقَشِعُ تاركًا مَكانَهُ لِلْحِكْمَةِ والرَّزانَةِ والتَّواضُعِ .

كانَ قَلَقُهُ عَلى ابْنِهِ عَلِيٍّ نَتيجَةً لِصِحَّتِهِ الَّتي كانَتْ تَسوءُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْم . وكانَ يَخْشى الرَّحيلَ عَنْ هَذا العالَمِ قَبْلَ أَنْ يَشْتَدَّ عودُ ابْنِهِ ويُصْبِحَ قادِرًا عَلى مُواجَهَةِ تَصاريفِ الدُّنْيا بِمُفْرَدِه ، خاصَّةً تَصاريفَ أَمْثالِ الوَزيرِ الْمُعينِ بْنِ ساوي ، الَّذي لَمْ يُكِنَّ لِلنّاسِ سِوَى كُلِّ كُرْهٍ وحِقْدٍ وحَسَدٍ . وكانَ النّاسُ عَلى قَدْرِ مَحَبَّتِهِمْ لِلْفَضْلِ بْنِ خاقانَ ، ودُعائِهِمْ لَهُ بالصِّحَّةِ وطولِ العُمْرِ ، يَبْغُضونَ الْمُعينَ بْنَ ساوي ويَتَمَنَّوْنَ أَنْ تَنْشَقَّ الأَرْضُ لِتَبْتَلِعَهُ ، ومَعَ ذَلِكَ لَمْ تَتَقَدَّمْ صِحَّةُ الفَضْلِ ، ولَمْ يَنْقَشِعْ كابوسُ الْمُعينِ كَما تَمَنَّوْا .

جَلَسَ الوالي مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيُّ ذاتَ مَساءٍ في كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِهِ ، وحَوْلَهُ أَرْبابُ دَوْلَتِهِ ، وبَيْنَهُمْ وَزيرُهُ الفَضْلُ بْنُ خاقانَ الَّذي كانَ يَثِقُ بِهِ ثِقَةً عَمْياءَ ، خاصَّةً في أُمورِ الْمالِ ، وقالَ لَهُ : « أُريدُ جارِيَةً لا يَكونُ في زَمانِها

أَحْسَنُ مِنْها ، وتَكونُ كامِلَةً في الجَمالِ ، فائِقَةً في الاعْتِدالِ ، حَميدَةَ الخِصالِ . »

فَكَّرَ الفَضْلُ كَعادَتِهِ في تُؤَدَةٍ في حينَ قالَ أَرْبابُ الدَّوْلَةِ وهُمْ يَتَبادَلونَ النَّظَراتِ : « هَذِهِ لا توجَدُ إلا بِعَشْرَةِ آلافِ دينارٍ . »

لَمْ يَتَرَدَّدِ الوالي لَحْظَةً واحِدَةً ، بَلْ صاحَ بالخازِنِ : « اِحْمِلْ عَشْرَةَ آلافِ دينارٍ إلى دارِ الفَضْلِ بْنِ خاقان . »

وكانَ الفَضْلُ كَعادَتِه عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ الوالي ؛ فَأَوْصى النَّخّاسينَ بأَلا تُباعَ جارِيَةٌ ثَمَنُها فَوْقَ أَلْفِ دينارٍ قَبْلَ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ . وبِرَغْمِ ثِقَلِ الْمُهِمَّةِ عَلى قَلْبِهِ ، فَإِنَّهُ نَهَضَ بها عَلى خَيْرِ وَجْهٍ .

بَعْدَ لأْيٍ حَضَرَ نَخّاسٌ بجارِيَةٍ رَشيقَةِ القَدِّ ساحِرَةِ النَّظْرَةِ ، وعَلَيْها أحْسَنُ ما يَكونُ مِنَ الثِّيابِ ، وكانَتِ الهالَةُ الْمُحيطَةُ بها توحي بمَنْبَتِها الحُرِّ الأصيلِ ، الَّذي لا يَمُتُّ لِدُنْيا الجَواري بصِلَةٍ مِنْ قَريبٍ أَوْ بَعيدٍ .

تَحَرَّكَتْ مَشاعِرُ الحَنانِ والعَطْفِ داخِلَ الفَضْلِ ، الَّذي شَعَرَ بشَوْقٍ بالِغٍ لِمَعْرِفَةِ حِكايَةِ هَذِهِ الفَتاةِ الجَميلَةِ البَريئَةِ ،

الَّتي حَلَمَ في يَوْمٍ مِنَ الأيّام أَنْ تَكونَ لَهُ ابْنَةٌ مِثْلُها . ودَفَعَ فيها عَشْرَةَ آلافِ دينارٍ لِلنَّخّاسِ الَّذي أَحْضَرَها ، والَّذي هَمَسَ في أُذُنِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ :

« عِنْدي مِنَ الرَّأْيِ أَنْ لا تَطْلُعَ بِهَذِهِ الجارِيَةِ إلى الوالي اليَوْمَ ؛ فَإِنَّها قادِمَةٌ مِنَ السَّفَرِ ، واخْتَلَفَ عَلَيْها الهَواءُ وأَتْعَبَها السَّفَرُ ، ولَكِنْ خَلِّها عِنْدَكَ في القَصْرِ عَشَرَةَ أَيّام حَتّى تَسْتَريحَ فَيَزْدادَ جَمالُها ، ثُمَّ اطْلُعْ بِها إلى الوالي فَيَكونَ لَكَ في ذَلِكَ الحَظُّ الأَوْفَرُ . »

تَأَمَّلَ الوَزيرُ كَلامَ النَّخّاسِ فَوَجَدَهُ صَوابًا ، فَأَخْلى لَها مَقْصورَةً في قَصْرِهِ ، ورَتَّبَ لَها كُلَّ يَوْمٍ ما تَحْتاجُ إلَيْهِ مِنْ طَعامٍ وشَرابٍ وغَيْرِهِ ، فَمَكَثَتْ مُدَّةً عَلى تِلْكَ الرَّفاهِيَةِ الَّتي كانَتْ تَسْتَحِقُّها ، إذْ كانَتْ بَدْرُ البُدور - وهَذا هُوَ اسْمُها - ابْنَةَ تاجِرٍ مِنْ أَغْنى تُجّارِ بَغْدادَ وأَكْرَمِهِمْ . لَكِنَّ دَوامَ الحالِ مِنَ المُحالِ ، إذْ نَضَبَ مَعينُ ثَرْوَتِهِ الَّتي تَرَكَها تَحْتَ رَحْمَةِ تَقَلُّباتِ السّوقِ وبَيْنَ أَيْدي اللُّصوصِ والسّارِقينَ ، الَّذينَ يَتَلَفَّعونَ بِأَرْدِيَةِ الشَّرَفِ والصِّدْقِ والأَمانَةِ الكاذِبَةِ .

لَجَأَ أَبو بَدْرِ البُدورِ إلى أَصْدقاء الأمْسِ لَعَلَّهُمْ يُخْرِجونَهُ مِنْ بِئْرِ الدُّيونِ الَّتي سَقَطَ فيها وبَلَغَ قاعَها ، لَكِنَّهُمْ تَهَرَّبوا مِنْهُ بَلْ أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ مَعْرِفَتَهُ بِهِ تَمامًا . وضاقَتِ الدُّنْيا في وَجْهِهِ واسْوَدَّتْ في عَيْنَيْهِ ، فَغابَ عَنْ بَيْتِهِ أسبوعًا لَمْ يَعْرِفْ فيه أَحَدٌ مَكانَهُ ، حَتّى وَجَدوا جُثَّتَهُ طافِيَةً ذاتَ صَباحٍ عَلى صَفْحَةِ نَهْرِ دِجْلَةَ . لَمْ تَحْتَمِلْ زَوْجَتُهُ الصَّدْمَةَ فَسَقَطَتْ مَريضَةً إلى أَنْ قَضَتْ نَحْبَها بَعْدَ رَحيلِهِ بِأَشْهُرٍ مَعْدوداتٍ . وفَجْأَةً وَجَدَتْ بَدْرُ البُدورِ نَفْسَها وَحيدَةً في هَذِهِ الدُّنْيا ، بَعْدَ أَنِ اسْتَوْلى الدّائِنونَ عَلى كُلِّ ما تَبَقّى لَها .

تَسَوَّلَتْ في شَوارِعِ بَغْدادَ لَكِنَّ جَمالَها كانَ نِقْمَةً عَلَيْها ؛ فَكانَ مُعْظَمُ النّاسِ يَمُدّونَ يَدَهُمْ بِالحَسَنَةِ طَمَعًا فيها . وقَضَتْ أَيّامًا ولَيالِيَ تَتَضَوَّرُ جوعًا ، حَتّى ذَبَلَ جَمالُها ونَحَلَ عودُها ، وسَقَطَتْ مَغْشِيًّا عَلَيْها ، إلى أَنْ أَفاقَتْ في بَيْتٍ أَدْرَكَتْ أَنَّهُ بَيْتُ أَحَدِ النَّخّاسينَ في بَغْدادَ ، لَكِنَّهُ كانَ عَلى عَكْسِ ما يَتَصَوَّرُهُ النّاسُ عَنِ النَّخّاسينَ ؛ فَقَدْ أَكْرَمَ ضِيافَتَها ، وكانَتْ لَهُ ولِزَوْجَتِهِ بِمَثابَةِ الابْنَةِ

الْمُطيعَةِ الَّتي تَمَنَّتْ أَنْ تَعيشَ العُمْرَ كُلَّهُ في خِدْمَتِهما .

وكانَ حُلْمُ الزَّواجِ هُوَ طاقَةَ الأمَلِ الوَحيدَةَ الَّتي فُتِحَتْ في وَجْهِ بَدْرِ البُدورِ ، وأَنارَتْ لَها طَريقَها في ظُلْمَةِ الدُّنْيا . لَمْ تُحاوِلْ أَنْ تَهْرُبَ مِنَ النَّخّاسِ ؛ لأنَّها كانَتْ تَعْلَمُ تَمامًا الْمَصيرَ الَّذي يَنْتَظِرُها خارِجَ بابِ بَيْتِهِ ، واسْتَسْلَمَتْ لأَقْدارِها .

ذُهِلَ الفَضْلُ بْنُ خاقان لِهَذِهِ الصَّبِيَّةِ الفاتِنَةِ الأَبِيَّةِ ، وأَدْرَكَ السِّرَّ في إصْرارِ النَّخّاسِ على ألا يُعَرِّفَها أَنَّ الَّذي اشْتَراها هُوَ والي البَصْرَةِ نَفْسُهُ ، لأَنَّهُ في النِّهايَةِ مُجَرَّدُ رَجُلٍ يُريدُ أَنْ يُعامِلَها كَجارِيَةٍ . وقَرَّرَ الفَضْلُ بِدَوْرِهِ أَنْ يَكْتُمَ عَنْها هَذا السِّرَّ حَتّى لا تَهْرُبَ ؛ فَتَكونَ الطّامَّةُ الكُبْرى عَلى رَأْسِهِ بَعْدَ أَنْ دَفَعَ فيها عَشْرَةَ الآلاف دينار الَّتي مَنَحَهُ الوالي إيّاها . وكانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَرَوّى لأَنَّهُ لَمْ يَشْتَرِ جارِيَةً ، بَلْ سَليلَةً لِلْمَجْدِ والشَّرَفِ .

وقَضى الفَضْلُ لَيالِيَ طَويلَةً يُقَلِّبُ الْمَوْضوعَ عَلى كُلِّ وُجوهِهِ مَعَ زَوْجَتِهِ ، إلى أَنْ قَرَّرا ذاتَ فَجْرٍ أَنْ يَرُدَّ الْمَبْلَغَ لِلْوالي بِحُجَّةِ أَنَّهُ عَجَزَ عَنْ إيجادِ الجارِيَةِ الْمَنْشودَةِ ، لَوْلا

عُيونُ الْمُعين بْنِ ساوي الَّتي رُبَّما تَكونُ قَدْ رَصَدَتْ بَدْرَ البُدور، فَيُوشي بِهِ عِنْدَ الوالي ؛ ولِذَلِكَ تَراجَعَ الفَضْلُ وزَوْجَتُهُ عَنْ قَرارِهِما طَلَبًا لِفُسْحَةٍ مِنَ الوَقْتِ قَدْ يَظْهَرُ فيها ما غابَ عَنْ بَصيرَتِهِما .

وسَرْعانَ ما كَشَفَت الأَيّامُ ما كانَتْ تُخَبِّئُهُ ؛ فذاتَ صَباحٍ مُشْرِقٍ خَرَجَتْ بَدْرُ البُدورِ مِنْ مَقْصورَتِها لِتُمَتِّعَ عَيْنَيْها بِالبُسْتانِ الْمُحيطِ بِقَصْرِ الوَزيرِ بَعْدَ أَنْ ضاقَتْ بِمَحْبِسِها ، وإِذْ بِعَلِيّ نورِ الدِّينِ ابْنِ الوَزيرِ يَراها . ولَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُحَرِّكَ قَدَمَيْهِ خُطْوَةً واحِدَةً ، وقَدْ وَقَفَ مَشْدوهًا ذاهِلاً أَمامَ هَذا الجَمالِ . لَمْ تَسْتَطِعْ بَدْرُ البُدورِ



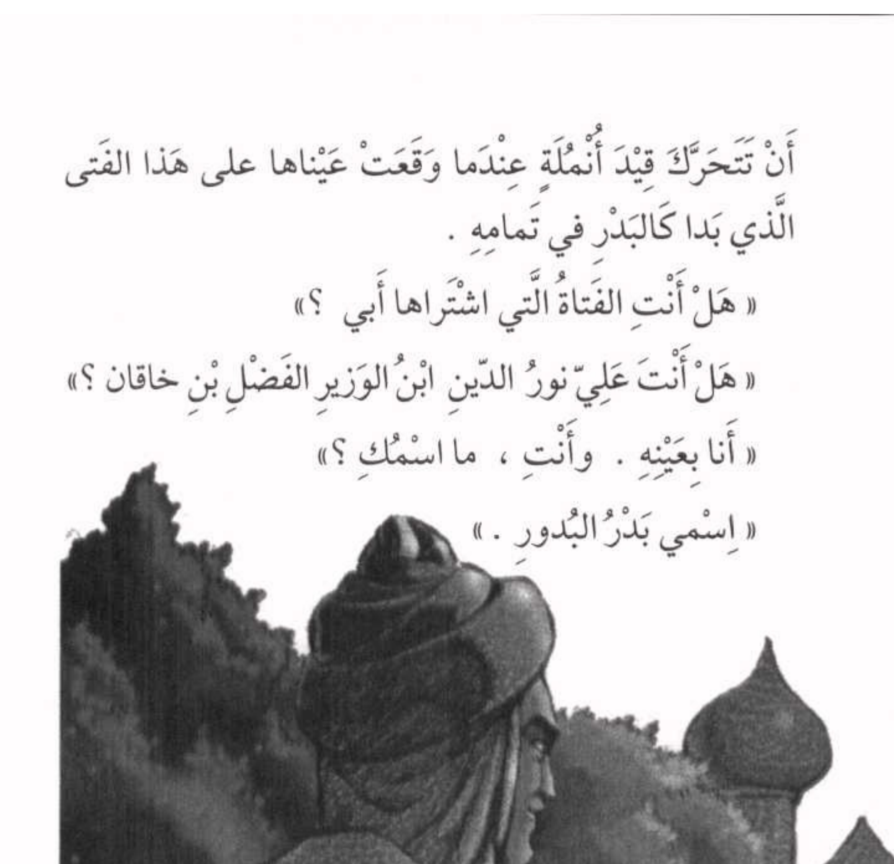
أَنْ تَتَحَرَّكَ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ عِنْدَما وَقَعَتْ عَيْناها على هَذا الفَتى الَّذي بَدا كَالبَدْرِ في تَمامِهِ .

« هَلْ أَنْتِ الفَتاةُ الَّتي اشْتَراها أَبي ؟»

« هَلْ أَنْتَ عَلِيّ نورُ الدّينِ ابْنُ الوَزيرِ الفَضْلِ بْنِ خاقان ؟»

« أَنا بِعَيْنِهِ . وأَنْتِ ، ما اسْمُكِ ؟»

« اِسْمي بَدْرُ البُدورِ . »



« اسْمٌ عَلى مُسَمّى . »

« أَخافُ أَنْ يَرانا الوَزيرُ فَأَتَسَبَّبَ في عِقابِكَ دونَ ذَنْبٍ جَنَيْتَهُ . »

« لا تَخافي ، يا بَدْرَ البُدور ، فَنَحْنُ لا نَسْرِقُ ، كَما أَنَّني سَأَذْهَبُ بِنَفْسي إلى أَبي لأُخْبِرَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَلَمْ يُعَوِّدْني أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا أَخْجَلُ مِنْ أَنْ يَراهُ . »

« وماذا سَتَقولُ لَهُ ؟ حَرامٌ أَنْ أَخْسَرَ حَياتِيَ في هَذا البَيْتِ الكَريمِ بَعْدَ الأَهْوالِ الَّتي مَرَرْتُ بِها ! »

« سَأَقولُ لَهُ إنَّني قَرَّرْتُ الزَّواجَ بِكِ ! فَما رَأْيُكِ ، يا بَدْرَ البُدورِ ؟»

تَمالَكَتْ نَفْسَها وقالَتْ : « لا توجَدُ فَتاةٌ في بَغْدادَ أَوِ البَصْرَةِ يُمْكِنُها أَنْ تُديرَ ظَهْرَها لِهَذا الشَّرَفِ ، حَتّى لَوْ كانَتِ ابْنَةَ هارونَ الرَّشيدِ نَفْسِهِ !»

وفَجْأَةً رَدَّدَ السُّكونُ نِداءَ زَوْجَةِ الوَزيرِ مِنْ نافِذَةِ القَصْرِ الْمُطِلَّةِ عَلى البُسْتانِ : « بَدْرَ البُدورِ ! بَدْرَ البُدورِ ! ماذا تَفْعَلينَ في البُسْتانِ؟»

كَتَمَتْ بَدْرُ البُدور شَهْقَةً انْتَفَضَ بها صَدْرُها ، وجَرَتْ عَلى أَجْنِحَةِ الرِّيح حَتّى ابْتَلَعَها بابُ القَصْر ، ونَظَراتُ عَلِيّ الحالِمَةُ تُتابِعُها في ابْتِسامَةِ مَنْ لا يُريدُ الاسْتيقاظَ .

٢

أُسْقِطَ في يَدِ الوَزير الفَضْلِ بْنِ خاقان عِنْدَما صارَحَهُ ابْنُهُ عَلِيّ بِرَغْبَتِهِ الشَّريفَةِ في الزَّواج بِبَدْر البُدور . وهِيَ رَغْبَةٌ لَقِيَتْ صَدًى مُحَبَّبًا في قَلْبِهِ بَعْدَ أَنْ فَكَّرَ كَثيرًا في طَريقَةٍ لإعْتاق بَدْر البُدور ، كَما أَنَّ ابْنَهُ ، مَحَطٌّ أَنْظار بَناتِ البَصْرَةِ ، قَرَّرَ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ أَخيرًا بَعْدَ أَنْ تَهَرَّبَ طَويلاً مِنْ فِكْرَةِ الارْتِباطِ بِزَوْجَةٍ ، بِرَغْم إلْحاح أبيهِ الَّذي أَرادَ أَنْ يَرْحَلَ عَنْ هَذِهِ الدُّنْيا وهُوَ مُطْمَئِنٌّ لِمُسْتَقْبَلِ ابْنِهِ في كَنَفِ زَوْجَةٍ تَرْعاهُ وتَحوطُهُ بِحُبِّها وحَنانِها ، وَسْطَ سِياجٍ حَريريٍّ ناعِمٍ وقَويٍّ ، يَمْنَعُ قُرَناءَ السّوءِ والطُّفَيْلِيِّينَ والْمُنافِقينَ مِنَ اسْتِنْزافِ ثَرْوَتِهِ وامْتِصاصِ دَمِهِ ، مِثْلَما وَقَعَ لأبي بَدْر البُدور مِنْ قَبْلُ .

لَكِنَّ الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ بِهَذِهِ البَساطَةِ ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْمُعينَ بْنَ

ساوي كانَ لِلْفَضْلِ بْن خاقان بالْمِرْصادِ ، باحِثًا عَنْ ثُغْرَةٍ يَتَسَلَّلُ مِنْها إِلَيْهِ لِيُصيبَهُ في مَقْتَلٍ . وبالفِعْلِ بَلَغَتْهُ بَعْضُ الشّائعاتِ الَّتي تَناثَرَتْ حَوْلَ فَتاةٍ غامِضَةٍ تَعيشُ في قَصْرِ الفَضْلِ ويُقالُ إِنَّها الجارِيَةُ الَّتي اشْتَراها لِلْوالي ، لَكِنْ يَبْدو أَنَّهُ اسْتَأْثَرَ بها لِنَفْسِهِ أَوْ لابْنِهِ . وهُوَ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يوشِيَ بهِ عِنْدَ الوالي دونَ دَليلٍ يُثْبِتُ ما يَقولُ ؛ وإلا دارَتِ الدَّوائِرُ عَلَيْهِ .

فَكَّرَ الفَضْلُ بْنُ خاقان في كُلِّ ما فَكَّرَ فيهِ الْمُعينُ بْنُ ساوي ، ولِذَلِكَ قَرَّرَ ألا يَمْنَحَهُ أيَّ دَليلٍ عَلى وُجودِ بَدْرِ البُدور ، كَذَلِكَ صارَحَتْ بَدْرُ البُدور الوَزيرَ بِأَنَّها كانَتْ قَدْ أَقْسَمَتْ بَيْنَها وبَيْنَ نَفْسِها أَنْ تَقْبَلَ أَوَّلَ رَجُلٍ يَعْرِضُ عَلَيْها الزَّواجَ حَتّى لَوْ كانَ فَقيرًا مُعْدمًا أوْ شَيْخًا يُناهِزُ التِّسْعينَ ، فَقَدْ كانَ الحُبُّ رَفاهِيَةً لا تَقْدِرُ عَلَيْها . فَما بالُكَ وعَلِيّ نورُ الدِّينِ ساحِرُ فَتَياتِ البَصْرَةِ هُوَ الَّذي تَقَدَّمَ لِلزَّواجِ بها !

تَمَّ عَقْدُ القِرانِ عَلى ألا تَبْرَحَ بَدْرُ البُدور مَقْصورَتَها إلا تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ وفي صُحْبَةِ زَوْجِها ، لِلتَّرَيُّضِ في

البُسْتان وتَنَسُّم هَواءِ اللَّيْلِ العَليلِ ، بَعْدَ التَّأكُّدِ مِنْ غِيابِ العُيونِ الَّتي رُبَّما تَكونُ مُرابِطَةً عِنْدَ نَواصي الطُّرُقاتِ .

وإمْعانًا في التَّخَفّي قابَلَ الفَضْلُ بْنُ خاقان الوالي ، حامِلاً مَعَهُ عَشَرَةَ الآلافِ دينار ؛ لِعَجْزِهِ عَنْ إيجادِ الجارِيَةِ الْمَنْشودَةِ بَعْدَ أَنْ طالَ البَحْثُ الدَّءوبُ عَنْها ، لَكِنَّ الوالي أَمَرَهُ بالاحْتِفاظِ بِالْمَبْلَغِ لِحينِ العُثورِ عَلَيْها ، فَهُوَ لَيْسَ في عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ . وبِذَلِكَ سَدَّ البابَ الَّذي كانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَسَلَّلَ مِنْهُ الْمُعينُ بْنُ ساوي .

عادَ الفَضْلُ سَعيدًا إلى بَيْتِهِ ، لَكِنَّ تَعَبَ الأيّامِ الماضِيَةِ قَضى عَلى البَقِيَّةِ الباقِيَةِ مِنْ صِحَّتِهِ ، فَلَزِمَ الوِسادَ ، وطالَ بِهِ السُّهادُ ، وتَسَلَّلَ إلَيْهِ الوَهَنُ . عِنْدَئِذٍ نادى وَلَدَهُ وقالَ لَهُ : « يا وَلَدي ، إنَّ الرِّزْقَ مَقْسومٌ ، والأجَلَ مَحْتومٌ ، ولا بُدَّ لِكُلِّ نَسَمَةٍ مِنْ شُرْبِ كَأْسِ الْمَنونِ . »

تَرَقْرَقَتِ الدُّموعُ في عَيْنَيْ عَلِيّ وتَهَدَّجَ صَوْتُهُ وهُوَ يَقولُ: « أَطالَ اللهُ عُمْرَكَ ، يا أَبي ! فَأَنْتَ لَنا كُلُّ خَيْرٍ وبَرَكَةٍ . »

« يا وَلَدي ، ما لي عِنْدَكَ وَصِيَّةٌ إلا تَقْوى اللهِ ، والنَّظَرُ

في العَواقِب ، والبُعْدُ عَنْ أَقْرانِ السّوءِ ، والرِّعايَةُ الكامِلَةُ لِزَوْجَتِكَ بَدْرِ البُدور . »

« يا أَبَتِ ، ومَنْ مِثْلُكَ ؟! لَقَدْ كُنْتَ مَعْروفًا بِفِعْلِ الخَيْرِ ودُعاءِ الخُطَباءِ لَكَ عَلى الْمَنابِرِ . »

« يا وَلَدي ، أَرْجو مِنَ اللهِ - تَعالى - القَبولَ . »

ثُمَّ نَطَقَ بالشَّهادَتَيْنِ وشَهقَ شَهْقَةً فَكُتِبَ مِنْ أَهْلِ السَّعادَةِ . عِنْدَ ذاكَ امْتَلأَ القَصْرُ بالصُّراخِ ، و وَصَلَ الخَبَرُ إلى الوالي ، وسَمِعَ أَهْلُ البَصْرَةِ بوَفاةِ الفَضْلِ بْنِ خاقان فَبَكى عَلَيْهِ النّاسُ حَتّى الصِّبْيانُ في مَكاتِبِهِمْ . ونَهَضَ وَلَدُهُ عَلِيّ نورُ الدّين وجَهَّزَهُ ، وحَضَرَ الأُمَراءُ والوُزَراء وأَرْبابُ الدَّوْلَةِ وأَهْلُ الْمَدينَةِ مَشْهَدَهُ . وكانَ مِمَّنْ حَضَرَ الجِنازَةَ الوَزيرُ الْمُعينُ بْنُ ساوي وقَدْ غَطّى وَجْهَهُ بِسَحابَةٍ مِنَ الحُزْنِ ، حاوَلَ بها إخْفاءَ فَرْحَتِهِ الكُبْرى ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ الرَّجُلَ الثّانِيَ في الدَّوْلَةِ

آنَ الأوانُ لِلْمُعينِ بْنِ ساوي كَيْ يُطْفِئَ نارَ الحِقْدِ الَّتي أَحْرَقَتْ قَلْبَهُ طَوالَ عَمَلِ الفَضْلِ بْنِ خاقان وَزيرًا لِلوالي مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيِّ . وهِيَ النّارُ الَّتي لَمْ تَنْطَفِئْ

بمَوْتِهِ ، بَلْ كانَ الانْتِقامُ مِن ابْنِه شَرْطًا أساسيًا لِلتَّخَلُّص مِنْ نيرِها اللاهِب . فَلَمْ تَعُد القَضِيَّةُ قَضِيَّةَ عَشَرَةِ آلافِ دينار لِشِراءِ جارِيَةٍ - وإن كانَ قَدْ ماتَ دونَ أنْ يَرُدَّ الدَّيْنَ - بَلْ أَصْبَحَتْ قَضِيَّةَ هَذا الابْنِ الَّذي وَرِثَ ثَرْوَةً لا تُقَدَّرُ دونَ أَنْ يَتْعَبَ فيها ، والَّذي لا بُدَّ أَنْ تَتَخَلَّلَهُ ثُغْراتُ ضَعْفٍ ونَزَقٍ وطَيْشٍ وغُرورٍ يُمْكِنُ أَنْ تَقْضِيَ عَلَيْهِ في النِّهايَةِ ، فَيَموتَ بِذَلِكَ ذِكْرُ الفَضْلِ بْنِ خاقان إلى الأبَدِ ، خاصَّةً وأَنَّ ذِكْرَهُ ظَلَّ يَتَرَدَّدُ عَلى الأَلْسِنَةِ بَعْدَ وَفاتِهِ أَكْثَرَ مِمّا كانَ في حَياتِهِ .

وسَرْعانَ ما بَثَّ الْمُعينُ عُيونَهُ حَوْلَ عَلِيّ نورِ الدّين ؛ بَحْثًا عَنِ الثُّغْراتِ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ يَتَسَلَّلوا مِنْها إِلَيْهِ ، اسْتِعْدادًا لِلْقَضاءِ الْمُبْرَمِ عَلَيْهِ .

٣

مَكَثَ عَلِيّ نورُ الدّينِ شَديدَ الحُزْنِ عَلى والِدِهِ مُدَّةً مَديدَةً ، ولَوْلا زَوْجَتُهُ بَدْرُ البُدورِ الَّتي ساندَتْهُ في مِحْنَتِهِ - لَماتَ حُزْنًا وكَمَدًا . كَما تَرَدَّدَ عَلَيْهِ جيرانٌ لَمْ يَكُنْ

يَعْرِفُهُمْ لِتَقْديمِ واجبِ التَّعْزِيَةِ ، وأَحاطوهُ بِحُنُوٍّ وعَطفٍ وحُبٍّ كَما لَوْ كانوا أَكْثَرَ مِنْ إخْوَةٍ أَعِزّاءَ ؛ فَارْتَبَطَ بِهِمْ وارْتاحَ إلى مَجْلِسِهِمُ الَّذي خَفَّفَ عَنْهُ كَثيرًا ، لِدَرَجَةِ أَنَّ الضّيقَ كانَ يَجْتاحُهُ كُلَّما غابَ عَنْهُ أَحَدُهُمْ .

وذاتَ مَساءٍ كانَ الْمَجْلِسُ مُنْعَقِدًا ، فَقامَ أَحَدُهُمْ وقَبَّلَ يَدَ عَلِيّ نور الدّين قائلاً دونَ أَنْ يُدْهَشَ الآخَرونَ لِمَسْلَكِهِ الْمُفاجِئ : « يا سَيِّدي ، مَنْ خَلَّفَ مِثْلَكَ ما ماتَ ، وهَذا مَصيرُ البَشَرِ أَجْمَعينَ ، وأَنْتَ لا تَزالُ في رَيْعانِ شَبابِكَ ، ولا يُعْقَلُ أَنْ تَتْرُكَ الحُزْنَ يَقْطِفُ زَهْرَتَهُ ! »

تَلَعْثَمَ عَلِيّ بَعْضَ الشَّيْءِ ثُمَّ قالَ : « يَبْدو أَنَّني أَثْقَلْتُ عَلَيْكُمْ طَوالَ الْمُدَّةِ الْماضِيَةِ ؟! »

جَلَسَ النَّديمُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ وقَدْ رَقَّ صَوْتُهُ وارْتَعَشَ وهُوَ يَقولُ : « لَمْ أَقْصِدْ هَذا ، يا سَيِّدي ، عَلى الإطْلاقِ . كُلُّ ما قَصَدْتُهُ أَنَّهُ آنَ الأوانُ كَيْ تَدَعَ الحُزْنَ وتَطيبَ نَفْسًا . وأَظُنُّ أَنَّ الأَصْدِقاءَ يُوافِقونَني عَلى ذَلِكَ . »

اهْتَزَّتِ الرُّؤوسُ وتَرَدَّدَتِ الأَصْواتُ مُؤَمِّنَةً عَلى ما قيلَ . ولَمْ يَكُنْ عَلِيّ نورُ الدّين في مَوْقِفٍ يَسْتَطيعُ فيهِ أَنْ

يَرُدَّ طَلَبًا لأصْدقاءِ الشِّدَّةِ ، الَّذينَ بَذَلوا الْمُسْتَحيلَ كَيْ يُخَفِّفوا مِنْ بَلْواهُ . فَلَيْسَ أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَرُدَّ بَعْضًا مِنْ جَميلِهِمْ في عُنُقِهِ ، وأَنْ يُدْخِلَ بَعْضًا مِنَ السَّعادَةِ إلى قُلوبِهِمْ ، وهُوَ القادِرُ عَلى ذَلِكَ بِما يَمْلِكُهُ مِنْ ثَرْوَةٍ تَعِزُّ عَلى الحَصْرِ .

اِنْقَلَبَ الْمَجْلِسُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ . لَمْ يَعُدْ عَلِيّ نورُ الدّين يَتَقبَّلُ واجباتِ التَّعْزِيَةِ الَّتي حَلَّتْ مَحَلَّها القُبُلاتُ عَلى جَبينِهِ ويَدَيْهِ ، وقَصائِدُ الْمَدْحِ والثَّناءِ والفَخْرِ الَّتي كانَتْ تُلْقى على مَسامِعِهِ في كُلِّ مَجْلِسٍ فَأَدْمَنَها ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ غُرورُهُ يَشْبَعُ بِدونِها . وأَصْبَحَتِ الْمَآدِبُ تُقامُ في اليَوْمِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثَ مَرّاتٍ ، وصارَ يُعْطي ويَتَكَرَّمُ ويُغْدِقُ عَلى كُلِّ مَنْ يَطْلُبُ مِنْهُ حَتّى لَوْ لَمْ يَكُنْ في حاجَةٍ مُلِحَّةٍ لِما يَطْلُبُ .

طاشَ صَوابُ بَدْرِ البُدورِ عِنْدَما وَجَدَتْ مِحْنَةَ أَبيها تَتَكَرَّرُ في زَوْجِها . لَجَأَتْ إلى أُمِّهِ كَيْ تَنْصَحَهُ ، لكنَّهُ عِنْدَما ضَرَبَ بِنَصيحَةِ أُمِّهِ عُرْضَ الحائِطِ ، واجَهَتْهُ هِيَ بِنَفْسِها ، وكانَتْ تُلِحُّ عَلَيْهِ بَعْدَ انْفِضاضِ كُلِّ مَجْلِسٍ

بأنَّها لا تَستَطيعُ أنْ تَقِفَ مَكْتوفَةَ اليَدَيْن وهِيَ تَراهُ يُدَمِّرُ نَفْسَهُ بِنَفْسِه كَما دَمَّرَ أَبوها نَفْسَهُ مِنْ قَبْلُ . ولا يُعْقَلُ أنْ يُضَيِّعَ الثَّرْوَةَ الَّتي كَدَحَ أَبوهُ في جَمْعِها بِحِكْمَتِه وجَهْدِهِ الدَّءوبِ عَلى هَؤُلاءِ الطُّفَيْلِيِّينَ ، الْمُنافِقينَ ، الْمُداهِنينَ ، الَّذينَ يَمْتَصّونَ دَمَهُ تَحْتَ أَرْدِيَةِ الصَّداقَةِ والإِخْلاصِ والتَّفاني في حُبِّهِ ، بَلْ إنَّهُ يَبْدو عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ ما ساندوهُ في فَتْرَةِ الحُزْنِ والحِدادِ إلا تَمْهيدًا لِلانْقِضاضِ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، خاصَّةً وأنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، ولَمْ يَكونوا مِنْ أَصْدِقاءِ أبيهِ . كُلُّ ما قالوهُ إنَّهُمْ جيرانُهُ ، وقَدْ ثَبَتَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ بُيوتَهُمْ تَقَعُ في أَماكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ في البَصْرَةِ ولا تَمُتُّ لِلْجيرَةِ بِصِلَةٍ .

أعارَ عَلِيّ نورُ الدّينِ زَوْجَتَهُ بَدْرَ البُدورِ آذانًا صَمّاءَ ، وعِنْدَما واصَلَتْ حَرْبَها ضِدَّ جُلَساءِ السّوءِ صَفَعَها بِجُمْلَةٍ لا تَزالُ تَلْفَحُ أُذُنَيْها :

« لَوْلا وَعْدي لأبي بِألا أَتزَوَّجَ عَلَيْكِ أَوْ أُطَلِّقَكِ - لأَلْقَيْتُ بِكِ في عُرْضِ الطَّريقِ ! المالُ مالي وأنا حُرٌّ فيهِ ! »

عِنْدَئِذٍ لَزِمَتْ بَدْرُ البُدورِ الصَّمْتَ والعُزْلَةَ . فَإذا كانَتْ

قَدْ عَجَزَتْ عَن إنْقاذِ سَفينَتِهِ مِنَ الغرَقِ ، فَلا حَياةَ لَها مِنْ بَعْدِهِ ، ولَيْسَ أَقَلَّ مِنْ أَنْ تَغْرَقَ مَعَهُ . ومَعَ ذَلِكَ لَجَأَتْ إلى وَكيلِهِ الَّذي عَمِلَ مِنْ قَبْلُ مَعَ أَبيهِ بِمُنْتَهى الإخْلاصِ والتَّفاني ، لَكِنَّها اكْتَشَفَتْ أَنَّ الرَّجُلَ الأمينَ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ إسْداءِ النُّصْحِ لِزَوْجِها الجامِحِ الطّائِشِ وتَبْصيرِهِ بِالعَواقِبِ الوَخيمَةِ الَّتي في انْتِظارِهِ عِنْدَ نِهايَةِ طَريقِ السّوءِ . فَكَثيرًا ما كَرَّرَ عَلى مَسامِعِهِ القَوْلَ المَأْثورَ : « مَنْ يُنْفِقْ ولَمْ يَحْسُبِ افْتَقَرَ . » وأَنَّ المالَ مَهْما يَكْثُرْ فَلا بُدَّ أَنْ يَنْضُبَ إنْ عاجِلاً أَوْ آجِلاً ، وأَنَّ ما تُشيرُ إلَيْهِ دَفاتِرُ المَصْروفِ يَدُلُّ عَلى الهاوِيَةِ الَّتي فَتَحَتْ فاها لِتَبْتَلِعَهُ حَتّى قاعِها. فَما كانَ مِنْ عَلِيّ نورِ الدّينِ سِوى أَنْ قالَ لِوَكيلِهِ :

« اِعْلَمْ ، أَيُّها الوَكيلُ ، أَنّي أُريدُ إذا فَضَلَ عِنْدي ما يَكْفيني لِغَدائي ، أَنْ لا تُحَمِّلَني هَمَّ عَشائي ! ولِذَلِكَ فَإنَّ جَميعَ ما قُلْتَهُ لَمْ أَسْمَعْ مِنْهُ كَلِمَةً ، فَلَيْسَ هُناكَ بَخيلٌ نالَ مَجْدًا بِبُخْلِهِ ، ولَيْسَ هُناكَ كَريمٌ ماتَ مِنْ كَرَمِهِ . »

واصَلَ عَلِيّ نورُ الدّينِ مُمارَسَةَ ما ظَنَّهُ مِنْ مَكارِمِ

الأخْلاق ، وكانَ كُلُّ مَنْ يَقولُ لَهُ مِنْ نُدَمائِهِ : « إنَّ هَذا شَيْءٌ مَليحٌ » ؛ يقولُ لَهُ على الفَوْر : « هُوَ لَكَ هِبَةٌ » . ومَنْ يَقولُ : « سَيِّدي ، إنَّ الدّارَ الفُلانِيَّةَ مَليحَةٌ » ، يُجيبُهُ في سَعادَةٍ غامِرَةٍ : « هِيَ لَكَ هِبَةٌ . » فَلَمْ يَعُدْ يُطيقُ أَنْ يَسْمَعَ سِوى قَصائِدِ الْمَدْحِ والثَّناءِ والنِّفاقِ والْمُداهَنَةِ . ولَمْ يَزَلْ يَعْقِدُ لِنُدَمائِهِ وأَصْحابِهِ في أَوَّلِ النَّهارِ مَجْلِسًا وفي آخِرِهِ مَجْلِسًا . ومَكَثَ عَلى هَذِهِ الحالِ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ ، إلى أَنْ أَتاهُ الوَكيلُ - ذاتَ مَساءٍ - كَالقَدَرِ الَّذي أَطْبَقَ عَلى أَنْفاسِهِ . اِسْتَأْذَنَ مِنْ نُدَمائِهِ لِكَيْ يَنْفَرِدَ بِوَكيلِهِ في مَقْصورَةٍ جانِبِيَّةٍ ، لَكِنَّ أَطْرافَ حَديثِهِما بَلَغَتْ آذانَهُمْ والوَكيلُ يَقولُ : « يا سَيِّدي ، إنَّ الَّذي كُنْتُ أَخافُ عَلَيْكَ مِنْهُ قَدْ وَقَعَ لَكَ . »

تَساءَلَ عَلِيّ نورُ الدّينِ في دَهْشَةٍ غافِلَةٍ : « وكَيْفَ ذَلِكَ ؟ »

« اِعْلَمْ أَنَّ ما بَقِيَ لَكَ تَحْتَ يَدَيَّ شَيْءٌ يُساوي دِرْهَمًا ولا أَقَلَّ مِنْ دِرْهَم ، وهَذِهِ دَفاتِرُ المَصروفِ الَّذي صَرَفْتَهُ ، ودَفاتِرُ أَصْلِ مالِكَ . »

فَلَمّا سَمِعَ عَلِيّ نورُ الدّينِ هَذا الكَلامَ أَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إلى

الأرْضِ ، وقالَ بِنَبَراتٍ مُهْتَزَّةٍ خافِتَةٍ : « لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ !»

عِنْدَئِذٍ قالَ أَحَدُ النُّدَماءِ قَبْلَ أَنْ يَعودَ عَلِيّ نورُ الدِّينِ إِلَيْهِمْ : « انْظُروا أيَّ شَيْءٍ تَعْمَلونَ ؛ فَإِنَّ عَلِيَّ نورَ الدِّينِ قَدْ أَفْلَسَ . »

فَلَمّا رَجَعَ عليّ نورُ الدّينِ وقَدِ افْتَرَشَ الغَمُّ وَجْهَهُ بِسَحابَةٍ مِنْ غُبارٍ عَكِرٍ ، وبِمُجَرَّدِ أنِ اتَّخَذَ جِلْسَتَهُ مَرَّةً أُخْرى في الصَّدارَةِ ، نَهَضَ أَحَدُ النُّدَماءِ عَلى قَدَمَيْهِ وهُوَ يَنْظُرُ إلى بابِ الخُروجِ ثُمَّ إلى عليّ نور الدّين قائلاً : « يا سَيِّدي ، إنّي أُريدُ أَنْ تَأْذَنَ لي بالانْصِرافِ !»

فَسَأَلَهُ نورُ الدّينِ وهُوَ لا يَزالُ يَرْزَحُ تَحْتَ وَطْأَةِ كابوسِ الغَمِّ : « ولِماذا الانْصِرافُ الآنَ بالذّاتِ ؟»

أَجابَ وهُوَ يَتَحاشى النَّظَرَ إلى عَيْنَيْهِ : « إنَّ زَوْجَتي تَلِدُ في هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، ولا يُمْكِنُني أَنْ أَتَخَلَّفَ عَنْها ، وأُريدُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْها وأَنْظُرَها . »

وبِمُجَرَّدِ أَنْ أَذِنَ لَهُ ، نَهَضَ آخَرُ بلا حَرَجٍ وهُوَ يَقولُ مُقْتَرِبًا مِنَ البابِ : « يا سَيِّدي نورَ الدّينِ ، أُريدُ اليَوْمَ أنْ

أَحْضُرَ عِنْدَ أَخي ، فَإِنَّ اليَوْمَ خِتانُ وَلَدِهِ !»

وصارَ كُلُّ واحِدٍ يَسْتَأْذِنُهُ بحيلَةٍ ويَذْهَبُ إلى حالِ سَبيلِهِ ، حَتّى انْصَرَفوا كُلُّهُمْ ، وبَقِيَ عَلِيّ نورُ الدّين وَحْدَهُ رازحًا تَحْتَ وَطْأَةِ الكابوسِ الَّذي مَلأ فَمَهُ بمَرارَةٍ ، حاوَلَ أَنْ يَهْرُبَ مِنْ مَذاقِها بدَعْوَةِ زَوْجَتِهِ الَّتي نَسِيَها طَويلاً لِلْجُلوسِ مَعَهُ كَيْ يَبُثَّها نَفْسَهُ الغارِقَةَ في بحارِ الحُزْنِ . حَكى لَها ما قالَهُ الوَكيلُ ، فَما كانَ مِنْها سِوى أَنْ قالَتْ لَهُ وكَلِماتُها تَقْطُرُ مَرارَةً قاتِلَةً : « أَ لَمْ أَسْتَعْطِفْكَ ، يا سَيِّدي ، أَنْ تَأْخُذَ حَذَرَكَ مِنْ قُرَناءِ السّوءِ الَّذينَ أَقْبَلوا عَلَيْكَ طَمَعًا في مالِكَ ولَيْس حُبًّا لَكَ ؟»

قاوَمَ نورُ الّدين أَمْواجَ اليَأْسِ الْمُعْتِم داخِلَهُ ، مُحاولاً إِثْباتَ صِحَّةِ ما فَعَلَهُ مَعَ أَصْدِقائِهِ : « يا بَدْرَ البُدور ، أَنْتِ تَعْرِفينَ أَنّي ما صَرَفْتُ مالي إلا عَلى أَصْحابي ، وأَظُنُّهُمْ لا يَتْرُكونَني مِنْ غَيْرِ مُواساةٍ !»

لَمْ تَحْتَمِلْ بَدْرُ البُدور إِصْرارَهُ عَلى خِداعِ نَفْسِهِ فَقالَتْ : « و اللهِ ، ما يَنْفَعوكَ بنافِعَةٍ .»

حاوَلَ أَنْ يَسْتَعيدَ رِباطَةَ جَأْشِهِ : « إنَّ غَدًا لِناظِرِهِ قَريبٌ .

سَأروحُ إلَيْهِمْ ، وأَطْرُقُ أَبْوابَهُمْ ، فَلا بُدَّ أَنْ أَنالَ مِنْهُمْ شَيْئًا لأجْعَلَهُ في يَدي رَأْسَمالٍ وأَتْجِرَ فيهِ ، فَقَدْ قَرَّرْتُ أَنْ أَتْرُكَ اللَّهْوَ واللَّعِبَ . »

وفي صَباحِ الغَدِ عَرَفَتْ طُرُقاتُ البَصْرَةِ وأَزِقَّتُها أَقْدامَ عَلِيّ نور الدّينِ لأوَّلِ مَرَّةٍ ؛ فَلَمْ يَكُنْ يَتَرَدَّدُ عَلى أَحَدٍ ، وإنَّما كانَ الجَميعُ يَتَرَدَّدونَ عَلَيْهِ . سارَ يَسْأَلُ عَنْ بُيوتِ النُّدَماءِ وقَدْ رَفَعَ أَطْرافَ عَباءَتِهِ السَّوداءِ حَتّى لا تَغوصَ في أَتْرِبَةِ الطُّرُقاتِ أَوْ وَحْلِ الأزِقَّةِ . بَلَغَ أَوَّلَ بُيوتِ النّدماءِ فَطَرَقَهُ لِتَخْرُجَ إلَيْهِ جارِيَةٌ قالَ لَها : « أنا عَلِيّ نورُ الدّينِ . قولي لِسَيِّدِكِ إنَّني واقِفٌ بالبابِ وفي انْتِظارِ الدُّخولِ لِحاجَةٍ مُلِحَّةٍ لا تَقْبَلُ التَّأْجيلَ ! »

فَدَخَلَتِ الجارِيَةُ وأَعْلَمَتْ سَيِّدَها الَّذي صاحَ قائلاً لها : « ارْجِعي وقولي لَهُ : ما هُوَ هُنا ! »

ونَفَّذَتِ الجارِيَةُ أَمْرَ سَيِّدِها ، لِيَبْدَأَ عَلِيّ نورُ الدّينِ رِحْلَةَ الذُّلِّ والهَوانِ . قالَ لِنَفْسِهِ وهُوَ في طَريقِهِ إلى بَيْتِ النَّديمِ الثّاني مُحاوِلاً الْتِماسَ أَسْبابِ العَزاءِ : « إذا كانَ هَذا الرَّجُلُ مِنَ الحَقارَةِ والخِسَّةِ بِحَيْثُ أَنْكَرَ نَفْسَهُ ، فَغَيْرُهُ

لا يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إلى هَذا الدَّرْكِ الأسْفَلِ !» ثُمَّ تَقَدَّمَ إلى البابِ الثّاني وقالَ كَما قالَ أَوَّلاً ، فَما كانَ مِنْ صاحِبِهِ الثّاني سِوى أَنْ أَنْكَرَ نَفْسَهُ أَيْضًا ! ودارَتْ بِهِ الأرْضُ ومادَتْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ وهُوَ لا يَزالُ يُمَنّي نَفْسَهُ بِأَنَّهُ سَيَجِدُ بَيْنَ أَصْحابِهِ واحِدًا يَقومُ مَقامَ الجَميعِ . فَدارَ عَلَيْهِمْ واحِدًا واحِدًا ، فَلَمْ يَجِدْ أحَدًا مِنْهُمْ فَتَحَ البابَ وأراهُ نَفْسَهُ ، ولا أَمَرَ بِأَيِّ مَبْلَغٍ يُنْقِذُ بِهِ نَفْسَهُ .

٤

وَسَطَ شُموعِ المَساءِ المُتَأَلِّقَةِ جَلَسَ المُعينُ بْنُ ساوي في الصَّدارَةِ أَمامَ عُيونِهِ الَّذينَ قَصّوا عَلَيْهِ - بِمُنْتَهى التَّشَفّي والشَّماتَةِ - كَيْفَ اسْتَنْزَفوا كُلَّ ثَرْوَةِ عَلِيّ نورِ الدّينِ حَتّى آخِرِ دِرْهَمٍ فيها . فَما كانَ مِنَ المُعينِ بْنِ ساوي سِوى أَنْ فَرَكَ لِحْيَتَهُ البَيْضاءَ وهُوَ يُقَهْقِهُ قائِلاً :

« لَوْلا ثَرْوَتي الَّتي تَأْتي في مَنْزِلَةٍ تالِيَةٍ لِثَرْوَةِ الوالي نَفْسِهِ ؛ لَكُنْتُ طالَبْتُكُمْ بِنَصيبي في الأراضي والبُيوتِ والبَساتينِ والحُقولِ الَّتي حَصَلْتُمْ عَلَيْها في مُقابِلِ أَبْياتٍ

مِنْ شِعْرِ الْمَديحِ الأجْوَفِ السَّخيفِ . لَكِنْ يَكْفيني أَنَّني نَجَحْتُ في الانْتِقامِ مِن ابْنِ الفضْلِ بَعْدَ أَنْ فَشِلْتُ فيه مَعَ الفَضْلِ نَفْسِه . ومَعَ ذَلِكَ فَأَنا لَمْ أَشْبَعْ مِنَ الانْتِقامِ بَعْدُ ، لأنَّهُ لَنْ يَهْدَأَ لي بالٌ إلا بَعْدَ أنْ تَعودَ الجارِيَةُ الَّتي اشْتَراها الفَضْلُ بِمالِ الوالي إلى الوالي نَفْسِهِ . فَقَدْ ماتَ وفي ذِمَّتِهِ لِلْوالي عَشَرَةُ آلافِ دينار ! وحَرامٌ أَنْ يُخَلَّدَ في النّارِ بِسَبَبِ مَبْلَغٍ تافِهٍ بِهَذا الشَّكْلِ !» وعادَ إلى قَهْقَهَتِهِ الْمُنْتَشِيَةِ وقَدْ نَهَضَ واقِفًا إيذانًا بِفَضِّ الْمَجْلِسِ .

كانَ قَدْ طَلَبَ لِقاءَ الوالي الَّذي تَفَضَّلَ فَسَمَحَ لَهُ بِهِ .

وفي حَضْرَةِ الوالي وَقَفَ الْمُعينُ بْنُ ساوي يَقُصُّ عَلَيْهِ قِصَّةَ الجارِيَةِ الَّتي كانَ قَدْ نَسِيَها تَمامًا بِرَغْمِ عَشَرَةِ الآلافِ دينارٍ الَّتي كانَ قَدْ أَعْطاها لِلْفَضْلِ لِشِرائِها قَبْلَ مَوْتِهِ . لَكِنَّهُ كانَ قَد اشْتَراها بِالفِعْلِ ، وبَدَلاً مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بها لِصاحِبِها الَّذي دَفَعَ فيها مِنْ حُرِّ مالِهِ ، زَوَّجَها لابْنِهِ بِمُنْتَهى البَساطَةِ ، بِرَغْمِ كُلِّ ادِّعائِهِ لِلشَّرَفِ والنَّزاهَةِ والصِّدْقِ والإخْلاصِ ، وذَهَبَ لِلِقاءِ وَجْهِ رَبِّهِ وهُوَ لِصٌّ بِمَعْنى الكَلِمَةِ .

قَطَّبَ الوالي جَبينَهُ ، وأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ في مُحاوَلَةٍ لِلتَّذَكُّرِ واسْتِرْجاعِ الماضي ثُمَّ قالَ : « ياه ! لَقَدْ أَنْسَتْني مَسْئولِيّاتُ الحُكْمِ هَذا المَوْضوعَ تَمامًا ! »

« وقَدِ اسْتَغَلَّ الفَضْلُ هَذِهِ المَسْئولِيّاتِ في سَرِقَةِ الجارِيَةِ الجَميلَةِ ! »

« هَلْ رَأَيْتَها بِنَفْسِكَ ، يا بْنَ ساوي ؟ »

« لَيْسَ في جَمالِها امْرَأَةٌ أُخْرى في البَصْرَةِ كُلِّها . سَتَكونُ زينَةَ قَصْرِكُمُ العامِرِ ! »

« وأَيْنَ هِيَ الآنَ ؟ »

« إِنَّها تَعيشُ مَعَ ابْنِ الفَضْلِ في كوخٍ على ساحِلِ البَحْرِ عيشَةَ المُتَسَوِّلينَ ؛ بَعْدَ أَنْ أُعْلِنَ إِفْلاسُهُ وماتَتْ أُمُّهُ كَمَدًا يَوْمَ بيعَ قَصْرُ الفَضْلِ ! »

« ولِماذا لَمْ يَأْتِ إِلَيَّ ابْنُ الفَضْلِ لِيَشْكُوَ لي هَمَّهُ ؟ أَلا يَعْلَمُ كَمْ كانَ أَبوهُ أَثيرًا إِلى قَلْبي ؟! »

صُعِقَ ابنُ ساوي لِهَذا التَّساؤُلِ المُفاجِئِ الَّذي رُبَّما حَمَلَ في طَيّاتِهِ فاتِحَةَ خَيْرٍ لابْنِ الفَضْلِ . شَحَذَ فِكْرَهُ

ودَهاءَهُ لِيَقولَ في تَساؤُلٍ مُضادٍّ : « وكَيْفَ يَجْرُؤُ مَنْ سَرَقَ أَمْوالَ الوالي عَلى الْمُثولِ بَيْنَ يَدَيْهِ ؟ ! »

« ولِماذا لَمْ يَمْتَهِنِ ابْنُ الفَضْلِ مِهْنَةً يَرْتَزِقُ مِنْها بِشَرَفٍ بَدَلاً مِنَ التَّسَوُّلِ عَلَى ساحِلِ البَحْرِ ؟ ! »

« لَوْ كانَ يَعْرِفُ الشَّرَفَ لَكانَ قَدْ رَدَّ لِجَلالَتِكُمْ جارِيَتَكُمُ الَّتي أَمَرْتُمْ بِشِرائِها مِنْ حُرِّ مالِكُمْ . لَكِنَّ الشَّرَفَ كَلِمَةٌ لا توجَدُ في قاموسِ هَذِهِ الأسْرَةِ الَّتي حَصَلَتْ عَلى عِزٍّ لَمْ تَكُنْ تَسْتَحِقُّهُ قَطُّ . »

تَمَلْمَلَ الوالي قَليلاً في جِلْسَتِهِ ، وقَد اسْتَبَدَّ القَلَقُ بِالْمُعينِ بْنِ ساوي مِنْ هَذِهِ التَّساؤُلاتِ الشّائِكَةِ إلى أنْ قالَ : « لَقَد اقْتَنَعْتُ بِحُجَّتِكَ ، يا بْنَ ساوي . وما دُمْتَ مُتَحَمِّسًا لاسْتِرْدادِ مالي بِهَذا الشَّكْلِ - وهَذا شَيْءٌ يُسْعِدُني لِلْغايَةِ - فَقَدْ أَوْكَلْتُ إلَيْكَ بِصِفَتِكَ وَزيرِيَ الأوَّلَ أنْ تَقومَ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ بِنَفْسِكَ ! »

الْتَبَسَ الأمْرُ عَلى الْمُعينِ بْنِ ساوي ، فَهِيَ مُهِمَّةٌ يَقومُ بها حَرَسُ الوالي ومَماليكُهُ ، ولا تَليقُ بالوَزيرِ الأوَّلِ في الدَّوْلَةِ ، خاصَّةً وأنَّ ابْنَ الفَضْلِ قَوِيُّ البِنْيَةِ ، مَتينُ

العَضَلاتِ ، طَويلُ القامَةِ ، يُجيدُ الْمُبارَزَةَ بِالسَّيْفِ ؛ ولِذَلِكَ يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ مَعَهُ أَشَدَّ رِجالِهِ بَأْسًا ، وأَنْ يَظَلَّ بَعيدًا عَنِ الصِّراعِ إلى أَنْ يَتِمَّ القَبْضُ عَلَيْهِ والعَوْدَةُ بِالجارِيَةِ إلى قَصْرِ الوالي .

٥

رَزَحَ عَلِيّ نورُ الدّينِ تَحْتَ جِبالِ الهَمِّ والغَمِّ وهُوَ يُتابِعُ مِنْ جِلْسَتِهِ في الكوخِ الْمَهْجورِ أَمْواجَ البَحْرِ وهِيَ تَلْطِمُ السّاحِلَ بَيْنَ الحينِ والآخَرِ ، كَما تَلْطِمُهُ أَمْواجُ الحَياةِ الآنَ حَتّى أَوْشَكَ عَلى الغَرَقِ . نَظَرَ إلى ثِيابِهِ الْمُهَلْهَلَةِ وانْحَدَرَتْ دَمْعَةٌ عَلى خَدِّهِ ، لَمْ تَحْتَمِلْ بَدْرُ البُدورِ مَنْظَرَها وهِيَ جالِسَةٌ قُبالَتَهُ ، فَقَطَعَتِ الصَّمْتَ بِكَلِماتٍ كَنَصْلِ السِّكّينِ :

« يا سَيِّدي ، إنَّ مِنَ الرَّأْيِ الصّائِبِ أَنْ تَقومَ في هَذِهِ السّاعَةِ وتَنْزِلَ بي إلى السّوقِ فَتَبيعَني . وأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ والِدَكَ كانَ قَدِ اشْتَراني بِعَشْرَةِ آلاف دينار ، فَلَعَلَّ اللهَ يَفْتَحُ عَلَيْكَ بِبَعْضِ هَذا الثَّمَنِ ، وإذا قَدَّرَ اللهُ اجْتِماعَنا فَسَوْفَ نَجْتَمِعُ ! »

أجابَها دونَ أَنْ يَجْرُؤَ عَلى النَّظَرِ في عَيْنَيْها : « يا بَدْرَ البُدور ، لا يَهونُ عَلَيَّ فِراقُكِ ساعَةً واحِدَةً !»

« وأَنا كَذَلِكَ ، لَكِنْ لِلضَّرورَةِ أَحْكامٌ !»

نَظَرَ في عَيْنَيْها ثُمَّ فَتَحَ شَفَتَيْهِ الْمُطْبِقَتَيْنِ في عَصَبِيَّةٍ :

« الأصيلُ أَصيلٌ ، يا بَدْرَ البُدور ، حَتّى ولَوْ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ شَرْوَى نَقير . وبصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ وَعْدي لأبي بألا أَتزَوَّجَ عَلَيْكِ وألاّ أَبيعَكِ ، فَإنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَخَيَّلَ حَياتي لَحْظَةً واحِدَةً بدونك ، ولِذَلِكَ فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ أَلْفَ مَرَّةٍ مِنْ فِراقِكِ . فَإذا كانَ مُقَدَّرًا لَنا أَنْ نَعيشَ مَعًا فَنِعْمَ الأَقْدارُ ! وإذا كانَ مُقَدَّرًا لَنا أَنْ نَموتَ مَعًا فَنِعْمَ الأَقْدارُ أَيْضًا ! لَكِنَّني سَأُواجِهُ كُلَّ الأَقْدار وسَأَتَحَدّاها إذا حاوَلَتْ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَنا ، ولِذَلِكَ لا أُريدُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكِ هَذا الهُراءَ مَرَّةً أُخْرى . »

تَجَسَّدَ العَزْمُ في بَريقِ عَيْنَيْهِ ، والإصْرارُ في نَبَراتِهِ الْمُتَهَدِّجَةِ ، فَرَفَعَتْ بَدْرُ البُدور وَجْهَها إلى السَّماءِ الْمُشْرِقَةِ الصّافِيَةِ ، ورَدَّدَ قَلْبُها صَلاةً صامِتَةً تَمَنَّتْ فيها أَنْ يَنْتَشِلَ اللهُ بِيَدِهِ الكَريمَةِ زَوْجَها الحَبيبَ مِنْ مِحْنَتِهِ الَّتي لَمْ

تَطْمِسْ عِزَّةَ نَفْسِهِ .

فَجْأَةً رَدَّدَ الأُفُقُ صَدى وَقْعِ سَنابِكِ خُيولٍ تَقْتَرِبُ . دونَ أَنْ يَتَبادَلا كَلِمَةً واحِدَةً وَقَفَ كُلٌّ مِنْ عَلِيٍّ وبَدْرِ البُدورِ عِنْدَ مَدْخَلِ الكوخِ الْمَهْجورِ ، لِيَجِدا رِجالاً يَقْتَرِبونَ مِنْهُما . وكانوا يُحيطونَ بالْمُعينِ بْنِ ساوي إِحاطَةَ السِّوارِ بالْمِعْصَمِ . وتَوَجَّسَ عَلِيٌّ خيفَةً فَدَخَلَ لِيَقْبِضَ عَلى سَيْفِهِ وعَصاهُ ، ثُمَّ خَرَجَ مَرَّةً أُخْرى آمِرًا بَدْرَ البُدورِ بِأَنْ تَلْزَمَ الكوخَ ، لَكِنَّها أَصَرَّتْ عَلى الوُقوفِ إِلى جانِبِهِ مَهْما تَكُنِ النَّتيجَةُ .

أَوْقَفَ الْمُعينُ بْنُ ساوي فَرَسَهُ أَمامَ عَلِيّ نورِ الدّينِ في حينَ أَحاطَ الرِّجالُ بالكوخِ عَلى خُيولِهِمُ النّافِرَةِ ، فَلَمَحَ عَلِيٌّ بَيْنَهُمْ بَعْضَ جُلَساءِ السّوءِ الَّذينَ نافَقوهُ بِقَصائِدِ الْمَدْحِ الْمُزَيَّفِ ، فَاسْتَوْلَوْا عَلى ما يَمْلِكُ ، وانْتَقَلَ مِنْ حَياةِ العِزِّ والكَرامَةِ إِلى عَيْشِ الذُّلِّ والْمَهانَةِ ؛ فَاسْتَشاطَ غَضَبًا ، فَرَفَعَ سَيْفَهُ في وَجْهِ الْمُعينِ بْنِ ساوي صائِحًا :

« الفَضْلُ بْنُ خاقان لَمْ يَمُتْ ، يا بْنَ ساوي ! مَنْ أَنْجَبَ عَلِيَّ نورَ الدّينِ لَمْ يَمُتْ ، يا بْنَ ساوي ! وأَفْضَلُ

لَكَ أَنْ تعودَ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ أَنْتَ وهَؤُلاءِ الْمُنافِقونَ ، الطُّفَيْلِيّونَ ، الخَوَنَةُ ! فَفي عُروقي الآنَ تَجْري جَحافِلُ جَيْشٍ جَرّارٍ لَنْ توقِفَهُ حَفْنَةٌ مِنَ الْمَماليكِ !»

زَمْجَرَ الْمُعينُ بْنُ ساوي وهُوَ يُلَوِّحُ بِسَيْفِهِ : « لَنْ أَتَنازَلَ وأَتَجاذَبَ أَطْرافَ الحَديثِ مَعَ مُتَسَوِّلٍ مِثْلِكَ . »

ثُمَّ أَشارَ إلى أَعْوانِهِ صائِحًا : « اِقْبِضوا عَلى الجارِيَةِ بِأَمْرِ مَوْلانا الوالي !»

وَقَفَ عَلِيٌّ حاجِزًا بَيْنَها وبَيْنَهُمْ وقَدْ أَمْسَكَ بِسَيْفِهِ في وَضْعِ الانْقِضاضِ ، وصاحَ : « مَنْ يَجْرُؤُ عَلى الاقْتِرابِ مِنْها عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ قَطْعَ ذِراعِهِ ثُمَّ عُنُقِهِ !»

هَجَمَ أَحَدُ الرِّجالِ صَوْبَ بَدْرِ البُدورِ مُشْهِرًا سَيْفَهُ ، لَكِنَّ سَيْفَهُ طارَ في لَمْحِ البَصَرِ ، ونَبَتَتْ في كَتِفِهِ نافورَةٌ مِنَ الدِّماءِ السّاخِنَةِ القانِيَةِ ، وامْتَزَجَ صُراخُهُ بِصَيْحاتِ عَلِيٍّ : « تَقَدَّمْ ، يا بْنَ ساوي ، ولا تَتَذَرَّعْ بِتَقَدُّمِكَ في السِّنِّ. فَالفارِسُ الحَقيقِيُّ لا يَحْتَمي بِبَعْضِ الْمُرْتَزِقَةِ !»

ثُمَّ أَلْقى عَلِيٌّ بِالسَّيْفِ والعَصا أَرْضًا وَسْطَ ذُهولِ الرّاكِبينَ وقالَ : « سَأُقاتِلُكَ وأَنا أَعْزَلُ حَتّى أُبْطِلَ كُلَّ

حُجَجِكَ ! اقْتَرِبْ حَتّى تَنالَ الجارِيَةَ الْمَطْلوبَةَ لِمَوْلاكَ !»

تَقَدَّمَ الْمُعينُ بْنُ ساوي بِسَيْفِهِ وهُوَ يَنْظُرُ في حَرَجٍ إلى رِجالِهِ الَّذينَ تَجَنَّبوا نَظَراتِهِ الحائِرَةَ ، في حينَ واجَهَهُ عَلِيٌّ بِصَدْرِهِ الْمَشْدودِ ورَأْسِهِ الشّامِخِ .

هَجَمَ الْمُعينُ بِسَيْفِهِ عَلى رَأْسِ عَلِيٍّ الَّذي تَفادى الضَّرْبَةَ وقَبَضَ عَلى ذِراعِ خَصْمِهِ ، فَإذا بِالسَّيْفِ يَطيرُ بَعيدًا ، والْمُعينُ يَتَهاوى مِنْ عَلى جَوادِهِ عَلى الأَرْضِ ، وراحَ عَلِيّ نورُ الدّين يَلْكُمُهُ ، فَجاءَتْ لَكْمَةٌ عَلى أَسْنانِهِ فَاخْتَضَبَتْ لِحْيَتُهُ الشَّهْباءُ بِدَمِهِ .

وسَرْعانَ ما تَجَمَّعَ النّاسُ مِنْ كُلِّ الأَرْجاءِ وأَحاطوا بِالْمَماليكِ الَّذينَ وَضَعوا أَيْدِيَهُمْ عَلى مَقابِضِ سُيوفِهِمْ ، وأَرادوا أَنْ يَهْجُموا عَلى عَلِيّ نورِ الدّينِ لِيُقَطِّعوهُ إرْبًا إرْبًا ، لَكِنَّ النّاسَ صاحوا فيهِمْ :

« هَذا وَزيرٌ وهَذا ابْنُ وَزيرٍ ، ورُبَّما اصْطَلَحا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَكونونَ مَبْغوضينَ عِنْدَ كُلٍّ مِنْهُما ، ورُبَّما جاءَتْ فيهِ ضَرْبَةٌ فَتَموتونَ جَميعًا أَقْبَحَ الْميتاتِ . ومِنَ الرَّأْيِ أَنْ لا تَدْخُلوا بَيْنَهُما فَأَنْتُمْ لا تَعْلَمونَ نِيَّةَ الوالي وإلى أيِّ جانِبٍ



يُمْكِنُ أَنْ يميلَ . »

نَهَضَ الوَزيرُ ذاهِلاً لِيَجدَ أَعْوانَهُ وقَدْ تَفرَّقوا بَعيدًا بخُيولِهِمْ بِمَنْ فيهِمُ الْمُصابُ بِقَطْعٍ في كَتِفِهِ ، بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدوا أَنَّها حَرْبٌ لا ناقَةَ لَهُمْ فيها ولا جَمَلَ . ظَلَّ الوَزيرُ يَنْظُرُ حَوْلَهُ بِعَيْنَيْنِ شارِدَتَيْنِ غَيْرَ مُصَدِّقٍ ما جَرَى لَهُ ، ولَمْ يُفِقْ مِنْ شُرودِهِ إلا عَلى صَوْتِ عَلِيّ نورِ الدّين :

« اِرْجِعْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ ، فَأَنا لا أُريدُ أَنْ أُلَطِّخَ يَدي بِدَمِكَ ! »

كانَ قُماشُ رِداءِ الوَزيرِ أَبْيَضَ فَصارَ مُلَوَّنًا بِثَلاثَةِ أَلْوانٍ : لَوْنُ الطّينِ ولَوْنُ الدَّمِ ولَوْنُ الرَّمادِ . فَلَمّا رَأى نَفْسَهُ عَلى هَذِهِ الحالِ عادَ مُنَكَّسَ الرَّأْسِ لا يَدْري ماذا يَفْعَلُ ، إلى أنْ وَقَفَ تَحْتَ قَصْرِ الوالي وصاحَ :

« أَيُّها الوالي ، مَظْلومٌ ! مَظْلومٌ وأَنا وَزيرُكَ الأَوَّلُ ! »

فَأَحْضَروهُ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَلَمْ يَتَمالَكِ الوالي سِوى أَنْ سَأَلَهُ في دَهْشَةٍ : « مَنْ فَعَلَ بِكَ هَذِهِ الفِعالَ ؟ »

بَكى الوَزيرُ قائلاً : « يا سَيِّدي ، أَ هَكَذا كُلُّ مَنْ يُحِبُّكَ ويَخْدُمُكَ تَحْدُثُ لَهُ هَذِهِ الْمَشاقُّ والإهاناتُ ؟ وعَلى يَدِ

مَنْ ؟ عَلى يَدِ مُتَسَوِّلٍ حَقيرٍ لا يُساوي شَرْوَى نَقيرٍ ؟»

وادَّعى الوَزيرُ كَيْفَ أَهانَ عَلِيّ نورُ الدّين الوالي بأَلْفاظٍ لا تَصْدُرُ إلا عَنْ أَبْناءِ السّوقَة ، مِمّا يُهَدِّدُ مَكانَتَهُ الأثيرَةَ والسّامِيَةَ في قُلوبِ النّاسِ الَّذينَ هُرِعوا لِلدِّفاعِ عَن ابْنِ الفَضْلِ ، الَّذي بَدا بَطَلاً عَظيمًا في نَظَرِهِمْ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رِجالُهُ التَّصَدِّيَ لَهُ ، بَلْ أُجْبِروا عَلى التَّفَرُّقِ .

ثُمَّ أَلْقى الوَزيرُ بِنَفْسِهِ عَلى الأَرْضِ وجَعَلَ يَبْكي ويَرْتَعِدُ . فَلَمّا نَظَرَ الوالي حالَهُ وسَمِعَ مَقالَهُ ؛ قامَ عِرْقُ الغَضَبِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إلى مَنْ بِحَضْرَتِهِ مِنْ أَرْبابِ الدَّوْلَةِ ، وإذا بِأَرْبَعينَ مِنْ ضاربي السَّيْفِ يَقِفونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَأَمَرَهُمْ قائِلاً : « جَهِّزوا أَنْفُسَكُمُ الآنَ ، وانْزِلوا إلى كوخِ ابْنِ الفَضْلِ بْنِ خاقان واهْدِموهُ عَلى رَأْسِهِ ، وائْتوني بِهِ وبِالجارِيَةِ مُكَتَّفَيْنِ . »

فَقالوا في صَوْتٍ واحِدٍ : « السَّمْعُ والطّاعَةُ . »

٦

كانَ عِنْدَ الوالي حاجِبٌ يُقالُ لَهُ عَلَمُ الدّينِ سِنْجِرِ ،

وكانَ أَوّلاً مِنْ مَماليكِ الفَضْلِ بْنِ خاقان والِدِ عَلِيّ نور الدّين . فَلَمّا سَمِعَ أَمْرَ الوالي ورَأَى الأعْداءَ تَهَيَّئوا لِقَتْلِ ابْنِ سَيِّدِهِ ؛ لَمْ يَهُنْ عَلَيْهِ لأنَّهُ لَمْ يَنْسَ كَرَمَ أَبيهِ وفَضْلَهُ عَلَيْهِ ، فَامْتَطى جَوادَهُ إلى أنْ أتى إلى كوخِ عَلِيّ نور الدّينِ فَطَرَقَ البابَ ، فَخَرَجَ لَهُ وعَرَفَهُ بمُجَرَّدِ أنْ رَآهُ . سَلَّمَ عَلَيْهِ وجَذَبَهُ إلى الدّاخِلِ لاسْتِضافَتِهِ لَكِنَّ سِنْجِر قالَ لاهِثًا : « يا سَيِّدي ، ما هَذا وَقْتَ سَلامٍ ولا كَلامٍ ! »

« ما الخَبَرُ ، يا عَلَمَ الدّين ؟ »

« انْهَضْ وفِرَّ بنَفْسِكَ أَنْتَ وزَوْجَتُكَ ؛ فَإِنَّ الْمُعينَ بْنَ ساوي قَدْ نَصَبَ لَكُما شَرَكًا ومَتى وَقَعْتُما في يَدِهِ قَتَلَكُما – وقَدْ أَرْسَلَ إلَيْكُما الوالي أَرْبَعينَ ضاربًا بالسَّيْفِ ، والرَّأْيُ عِنْدي أَنْ تَهْرُبا قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ الضَّرَرُ بكُما . »

ثُمَّ مَدَّ سِنْجِر يَدَهُ إلى عَلِيٍّ بدَنانيرَ فَعَدَّها و وَجَدَها أَرْبَعينَ دينارًا ، وقالَ لَهُ : « يا سَيِّدي ، خُذْ هَذِهِ ؛ فَأَنا لا أَنْسى فَضْلَ أَبيكَ عَلَيَّ أَبَدًا ، ولَوْ كانَ مَعي أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ لأَعْطَيْتُكَ إيّاهُ ، لَكِنْ ما هَذا وَقْتَ مُعاتَبَةٍ ! »

شَكَرَ لَهُ عَلِيٌّ تَصَرُّفَهُ هَذا مِنْ أَعْماقِ قَلْبِهِ ، وعادَ سِنْجِر



بجَوادِهِ مِنْ حَيْثُ أتى . وفي الحالِ اصْطَحَبَ عَلِيٌّ زَوْجَتَهُ بَدْرَ البُدور إلى ساحِلِ البَحْرِ ، حَيْثُ مَنَّ اللهُ عَلَيْهما بمَرْكَبٍ كانَ يُجَهَّزُ لِلسَّفَرِ ، والرُّبّانُ واقِفٌ في وَسَطِ المَرْكَبِ يَصيحُ بِصَوْتٍ يُرَدِّدُهُ صَدى الأفُق :

« مَنْ بَقِيَتْ فيه حاجَةٌ مِنْ وَداعٍ أَوْ زادٍ أَوْ نَسِيَ حاجَةً ؛ فَلْيَأْتِ بِها ؛ فَإِنَّنا مُتَوَجِّهونَ . »

فَقالوا كُلُّهُمْ : « لَمْ تَبْقَ لَنا حاجَةٌ ، أَيُّها الرُّبّانُ! »

عِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ الرُّبّانُ بَحّارَتَهُ : « هَيّا ! حُلّوا الطَّرَفَ واقْلَعوا الأوْتادَ . »

سَأَلَهُ عَلِيّ نورُ الدّين وقَد اسْتَوى إلى جوارِ زَوْجَتِهِ عَلى مَقْعَدٍ خَشَبِيٍّ : « إلى أَيْنَ ، أَيُّها الرُّبّانُ ؟ »

« إلى دارِ السَّلامِ – بَغْدادَ . »

* * *

هَذا ما جَرى لِعَلِيّ نورِ الدّين وزَوْجَتِهِ بَدْر البُدور ، أَمّا ما جَرى لِلأرْبَعينَ ضارِبًا بِالسَّيْفِ ، الّذينَ أَرْسَلَهُمُ الوالي ، فَإِنَّهُمْ جاءوا إلى كوخِ عَلِيّ نورِ الدّين وزَوْجَتِهِ

فَلَمْ يَجدوهُما . بَحَثوا عَنْهُما في كُلِّ الأَكْواخِ والبُيوتِ الْمُحيطَةِ فَلَمْ يَعْثُروا عَلى أَيِّ أثَرٍ لَهُما ، ولَمْ يَقِفوا لَهُما عَلى خَبَرٍ . هَدَموا الكوخَ وساوَوْهُ بالأَرْضِ ثُمَّ رَجَعوا إلى الوالي لِيُعْلِموهُ بِما حَدَثَ ، فَأَمَرَهُمْ قائِلاً :

« اطْلُبوهُما في أَيِّ مَكانٍ كانا فيهِ ؛ فَلَنْ يَهْنَأَ لي بالٌ إلا بالقَبْضِ عَلَيْهِما ، وإنْزالِ العِقابِ الصّارِمِ الَّذي يَسْتَحِقّانِهِ ! »

ثُمَّ أَمَرَ الوالي بِأَنْ يُنادى في كُلِّ أَرْجاءِ الْمَدينَةِ :

« يا مَعاشِرَ النّاسِ كافَّةً ، قَدْ أَمَرَ الوالي أَنَّ مَنْ يَعْثُرُ على عليّ نور الدّين بْن خاقان ويَجيءُ بِهِ إليه ؛ خَلَعَ عَلَيْهِ خُلْعَةً ، وأَعْطاهُ أَلْفَ دينار . ومَنْ يُخْفيهِ أَوْ يَعْرِفُ مَكانَهُ ولَمْ يُخْبِرْ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ العِقابَ . »

ثُمَّ نَزَلَ الوَزيرُ الْمُعينُ بْنُ ساوي إلى بَيْتِهِ بَعْدَ أَنْ خَلَعَ عَلَيْهِ الوالي خُلْعَةً وهُوَ يَقولُ لَهُ في تَأَثُّرٍ واضِحٍ : « لا يَأْخُذُ بِثَأْرِكَ إلا أَنا . » فَدَعا لَهُ بِطولِ البَقاءِ ، واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ ، وطارَ عَلى أَجْنِحَةِ السَّعادَةِ .

مَرَّتِ الأَيّامُ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفوا لَهُما أَثَرًا ، وكَأَنَّ الأَرْضَ

انْشَقَّتْ وابْتَلَعَتْهُما . وأَصْبَحَ عَلِيّ نورُ الدّين كابوسًا يُطارِدُ الْمُعينَ بْنَ ساوي في صَحْوِهِ ومَنامِهِ .

٧

بَدَتْ مَآذِنُ بَغْدادَ وقِبابُها في الأُفُقِ وَسْطَ سُحُبٍ شَفّافَةٍ مُتَهادِيَةٍ ، والْمَرْكَبُ يَشُقُّ عُبابَ الْمِياهِ في نَهْرِ دِجْلَةَ وهُوَ يُقَلِّلُ مِنْ سُرْعَتِهِ بَيْنَ القُصورِ والْمَباني الجَميلَةَ بَيْنَ ضَفَّتَي النَّهْرِ ، إلى أَنْ أَلْقى البَحّارَةُ الأوْتادَ ورَبَطوا الطَّرَفَ وصَوْتُ الرُّبّانِ يُجَلْجِلُ في سَعادَةٍ :

« حَمْدًا للهِ عَلى السَّلامَةِ . هَذِهِ بَغْدادُ ، وهي مَدينَةٌ أَمينَةٌ ، وقَدْ وَلّى عَنْها الشِّتاءُ بِبَرْدِهِ ، وأَقْبَلَ عَلَيْها فَصْلُ الرّبيعِ بِوَرْدِهِ ، وازْدَهَرَتْ أَشْجارُها وجَرَتْ أَنْهارُها . »

فَعِنْدَ ذَلِكَ طَلَعَ عَلِيّ نورُ الدّين وزَوْجَتُهُ بَدْرُ البُدورِ مِنَ الْمَرْكَبِ ، وأَعْطى الرُّبّانَ خَمْسَةَ دَنانيرَ ، ثُمَّ سارا قَليلاً فَرَمَتْهُما الْمَقاديرُ بَيْنَ البَساتينِ ، فَجاءا إلى مَكانٍ فَوَجَداهُ مَكْنوسًا مَرْشوشًا بِمَصاطِبَ مُسْتَطيلَةٍ ، وقَواديسَ مُعَلَّقَةٍ مَلآنَةٍ ماءً ، وفَوْقَهُ مُكَعَّبٌ مِنَ القَصَبِ بِطولِ الزُّقاقِ ،

وفي صَدْرِ الزُّقاقِ بُسْتانٌ مُغْلَقٌ ، فَقالَ عَلِيٌّ لِزَوْجَتِهِ : « واللهِ ، إنَّ هَذا الْمَكانَ مَليحٌ !»

فَقالَتْ بَدْرُ البُدورِ وقَدْ شَرَدَتْ بِبَصَرِها وفِكْرِها بَعيدًا :

« يا سَيِّدي ، اقْعُدْ بنا ساعَةً عَلى هَذِهِ الْمَصاطِبِ ؛ فَقَدْ تَذَكَّرْتُ أَيّامَ العِزِّ والسَّعادَةِ والثَّراءِ والْمَجْدِ حينَ كانَ أَبي شَهْبَنْدَرَ تُجّارِ بَغْدادَ . وها أَنا ذي الآنَ أَعودُ إلَيْها مُتَسَوِّلَةً لا أَجِدُ مَكانًا أَنامُ فيهِ !»

رَبَّتَ عَلِيٌّ كَتِفَها في حَنانٍ دافِقٍ وقَدْ وَمَضَتْ عَيْناهُ بِبَوادِرِ دُموعٍ ، وقالَ : « نَحْنُ في مَرْكَبٍ واحِدٍ ، يا بَدْرَ البُدورِ . أَنا أَيْضًا كانَ أَبي الوَزيرَ الأَوَّلَ في البَصْرَةِ ، وهَأَنَذا الآنَ أَرْحَلُ عَنْها مُتَسَوِّلاً لا أَجِدُ مَكانًا أَنامُ فيه !»

« والأَمْرُ العَجيبُ أَنَّ أَبي بَدَّدَ ثَرْوَتَهُ عَلى الطُّفَيْلِيِّينَ والْمُنافِقينَ والسُّفَهاءِ وجُلَساءِ السّوءِ مِثْلَكَ تَمامًا !»

لَمْ يَغْضَبْ بَلْ قالَ مُبْتَسِمًا : « مَعَ فارِقٍ واحِدٍ ، أَنَّني كُنْتُ شابًّا غِرًّا طائِشًا لا أُجيدُ سِوى الْمُبارَزَةِ بالسَّيْفِ ، والضَّرْبِ بالعَصا ، والْمُصارَعَةِ بالأَيْدي ، أَمّا والِدُكِ فَكانَ شَهْبَنْدَرَ تُجّارِ بَغْدادَ الَّذي لا يُشَقُّ لَهُ في أُمورِ المالِ

والتِّجارَةِ غُبارٌ !»

ضَحِكَتْ في عُذوبَةٍ بالِغَةٍ وقالَتْ : « غَلَبْتَني ! وهَلْ ما زِلْتَ شابّا غرًّا طائشًا ؟!»

« بَعْدَ مَوْقِعَتي مَعَ الْمُعينِ بْن ساوي تَقَدَّمْتُ في العُمْرِ مِئَةَ عامٍ ويَزيدُ . »

طَلَعا وجَلَسا عَلى الْمَصاطِبِ ، ثُمَّ غَسَلا وَجْهَيْهما وأَيْدِيَهُما وتَلَذَّذا بِمُرورِ النَّسيمِ الْمُحَمَّلِ بِعِطْرِ الوَرْدِ فَناما . وكانَ البُسْتانُ يُسَمّى بُسْتانَ النُّزْهَةِ ، وهُناكَ قَصْرٌ يُقالُ لَهُ قَصْرُ الفُرْجَةِ وهُوَ لِلخَليفَةِ هارونَ الرَّشيد . وكانَ الخَليفَةُ إذا ضاقَ صَدْرُهُ يَأْتي إلى البُسْتانِ ويَدْخُلُ ذَلِكَ القَصْرَ فَيَقْعُدُ فيهِ . وكانَ لِلقَصْرِ ثَمانونَ نافِذَةً ، ومُعَلَّقٌ فيهِ ثَمانونَ قِنْديلاً ، وفي وَسَطِهِ شَمْعِدانٌ كَبيرٌ مِنَ الذَّهَبِ . فَإِذا دَخَلَهُ الخَليفَةُ أَمَرَ الجَواريَ أَنْ يَفْتَحْنَ النَّوافِذَ ، وأَمَرَ إِسْحَقَ النَّديمَ والجَوارِيَ أَنْ يُغَنّوا لِيَنْشَرِحَ صَدْرُهُ ويَزولَ هَمُّهُ .

وكانَ لِلبُسْتانِ بُسْتانِيٌّ مُتَقَدِّمٌ في السِّنِّ يُقالُ لَهُ الشَّيْخُ إِبْراهيمُ . وكانَ قَدْ عَمِلَ بُسْتانِيّا قَبْلَ ذَلِكَ في بُسْتانِ

شَهْبَنْدَر تُجّار بَغْدادَ النُّعْمانِ بْنِ كاظِمٍ ، إلى أَنْ أُعْلِنَ إفْلاسُهُ ، وضاقَتِ الدُّنْيا في وَجْهِهِ ، وغابَ عَنْ بَيْتِهِ أُسْبوعًا لَمْ يَعْرِفْ فيهِ أَحَدٌ مَكانَهُ ، حَتّى وَجَدوا جُثَّتَهُ طافِيَةً - ذاتَ صَباحٍ - عَلى صَفْحَةِ نَهْرِ دِجْلَةَ . وكَمْ حَزِنَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ إبْراهيمُ الَّذي لَمْ يَرَ عَلى يَدَيْهِ سِوى كُلِّ خَيْرٍ وتَكْريمٍ ، وانْتَهى نِهايَةً لَمْ يَكُنْ يَسْتَحِقُّها قَطُّ . وماتَتْ زَوْجَتُهُ كَمَدًا ، وهامَتِ ابْنَتُهُ الجَميلَةُ بَدْرُ البُدورِ عَلى وَجْهِها فَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ إذا كانَتْ حَيَّةً أَوْ لَحِقَتْ بِوالِدَيْها .

سارَ الشَّيْخُ إبْراهيمُ - كَعادَتِهِ - لِتَفَقُّدِ البُسْتانِ ، فَإذا بِهِ يَجِدُ الاثْنَيْنِ نائِمَيْنِ مُغَطَّيَيْنِ بِإزارٍ واحِدٍ ؛ فَقالَ لِنَفْسِهِ مُتَسائِلاً في دَهْشَةٍ :

« هَلْ بَلَغَتْ بِهِما الجُرْأَةُ والوَقاحَةُ هَذا الحَدَّ فَناما بِهَذا الشَّكْلِ في بُسْتانِ الخَليفَةِ ؟ ماذا كانَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لَوْ رَآهُما أَميرُ الْمُؤْمِنينَ في جَوْلَةٍ مِنْ جَوْلاتِهِ الَّتي يَقومُ بِها في البُسْتانِ مِنْ حينٍ لآخَرَ ؟ هَلْ يَتَّهِمُني بِالتَّسَتُّرِ عَلَيْهِما فَيَطْرُدَني ويَقْطَعَ رِزْقي ؟ لا بُدَّ أَنْ أُلَقِّنَهُما دَرْسَ العُمْرِ حَتّى يَعْرِفا عاقِبَةَ هَذِهِ الجُرْأَةِ والوَقاحَةِ !»

ثُمَّ قَطَعَ جَرِيدَةً خَضْراءَ وخَرَجَ إلَيْهما ، ورَفَعَ يَدَهُ لِيَنْهالَ بها عَلَيْهما ، لَكِنَّهُ أَوْقَفَ ذِراعَهُ في آخِرِ لَحْظَةٍ وهُوَ يَقولُ لِنَفْسِهِ : « يا إبْراهيمُ ، كَيْفَ تَضْرِبُهُما وأَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ حالَهُما؟ قَدْ يَكونانِ غَرِيبَيْنِ أَوْ مِنْ أَبْناءِ السَّبيلِ ورَمَتْهُما الْمَقاديرُ هُنا . مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ أَكْشِفَ عَنْ وَجْهَيْهِما أَوَّلاً ثُمَّ أُقَرِّرَ ماذا يُمْكِنُ أَنْ أَفْعَلَ . »

ثُمَّ رَفَعَ الإِزارَ عَنْ وَجْهَيْهِما وقالَ في هَمْسٍ رَقيقٍ :

« هَذانِ حُسْنانِ لا يَنْبَغي أَنْ أَضْرِبَهُما . هَذانِ الوَجْهانِ الجَميلانِ لا يُناسِبانِ هَذِهِ الأَسْمالَ البالِيَةَ ، لَكِنَّها الدُّنْيا الَّتي لا تَظَلُّ عَلى حالٍ واحِدَةٍ أَبَدًا ! لا بُدَّ أَنَّ وَراءَهُما ما وَراءَهُما !»

حَمْلَقَ الشَّيْخُ إبْراهيمُ في وَجْهِ الفَتاةِ بِعَيْنَيْنِ جاحِظَتَيْنِ ولِسانُهُ يَلْهجُ بِهَمَساتٍ مَبْحوحَةٍ :

« سُبْحانَ اللهِ العَلِيِّ العَظيم ! كَأَنَّها ابْنَةُ النُّعْمانِ بْنِ كاظِمٍ وقَدْ عادَتْ إلى الحَياةِ ! ومَنْ قالَ إنَّها ماتَتْ ؟! وهَلْ تَرْتَدي ابْنَةُ العِزِّ هَذِهِ الأَسْمالَ البالِيَةَ ؟! ومَنْ قالَ



إنَّها ابْنَةُ عِزٍّ ؟! لَقَدْ كانَتْ هَكَذا ثُمَّ تَشَرَّدَتْ ! الدُّنْيا لا تَدومُ لأحَدٍ ! ومَنْ هَذا الَّذي يَنامُ إلى جوارِها ؟ هَلْ تَزَوَّجَتْ مِنْ مُتَشَرِّدٍ مِثْلِها ؟! الحَمْدُ للهِ أنَّ يَدي لَمْ تَمْتَدَّ لِضَرْبِهِما ! إنَّني أَموتُ شَوْقًا الآنَ لأعْرِفَ ماذا جَرى لابْنَةِ النُّعْمانِ بْنِ كاظِمٍ !»

ثُمَّ غَطَّى وَجْهَيْهِما ، وتَقَدَّمَ إلى رِجْلِ عَلِيّ نورِ الدّين وجَعَلَ يُكَبِّسُها ، فَفَتَحَ هَذا عَيْنَيْهِ فَوَجَدَهُ شَيْخًا كَبيرًا ؛ فاسْتَحى وضَمَّ ساقَيْهِ واسْتَوى قاعِدًا ، وأَخَذَ يَدَ الشَّيْخِ فَقَبَّلَها ، فَقالَ لَهُ مُتَسائِلاً : « يا وَلَدي ، مِنْ أَيْنَ أَنْتُما ؟»

فَأَجابَهُ والدُّموعُ تَتَساقَطُ مِنْ عَيْنَيْهِ : « يا سَيِّدي ، نَحْنُ غُرَباءُ ، ولَيْسَ لَنا مَكانٌ نَبيتُ فيهِ . »

« ومَنْ هَذِهِ النّائِمَةُ إلى جِوارِكَ ؟»

« إنَّها زَوْجَتي . كانَ والِدُها شَهْبَنْدَرَ تُجّارِ بَغْدادَ ، لَكِنَّ الزَّمانَ تَنَكَّرَ لَهُ وأَنا أَيْضًا ابْنُ الفَضْلِ بْنِ خاقانَ الوَزيرُ الأَوَّلُ لِلْوالي مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيّ والي البَصْرَةِ . وَرِثْتُ عَنْهُ ثَرْوَةً لا يُمْكِنُ أَنْ تُحْصى ، لَكِنَّني بِطَيْشي وغُروري تَرَكْتُها تَتَسَرَّبُ مِنْ بَيْنِ أَصابِعي . وها أَنْتَ ذا

تَرى الحالَ الَّتي بَلَغْناها !»

« ما اسْمُ زَوْجَتِكَ ؟»

« اِسْمُها بَدْرُ البُدور بِنْتُ النُّعْمانِ بْنِ كاظِمٍ . »

« قَدْ تَدورُ الأيّامُ لِتُفَرِّقَ بَيْنَ النّاسِ أَوْ تَجْمَعَ شَمْلَهُمْ !»

لَمْ يَفْهَمْ عَلِيّ نورُ الدّين ما قَصَدَهُ الشَّيْخُ إبْراهيمُ بِهٰذِهِ الكَلِماتِ ، وكانَ عَلى وَشْكِ أَنْ يَسْأَلَهُ لَوْلا أَنَّ الشَّيْخَ طَلَبَ مِنْهُ إيقاظَ زَوْجَتِهِ لأنَّ ثَمَّةَ مُفاجَأَةً سَعيدَةً في انْتِظارِها . ولأوَّل مَرَّةٍ تَلْتَقِطُ أَسْماعُ عَلِيّ نور الدّين كَلِمَةَ السَّعادَةِ مُنْذُ أَنْ فَقَدَ ثَرْوَتَهُ ؛ فَاسْتَبْشَرَ خَيْرًا ، وشَرَعَ في إيقاظِ زَوْجَتِهِ .

اِسْتَوَتْ بَدْرُ البُدور جالِسَةً وكَأَنَّها تَحْلُمُ . نَظَرَتْ إلى الشَّيْخِ إبْراهيمَ ، ثُمَّ دَقَّقَتِ النَّظَرَ وقالَتْ بِصَوْتٍ مَبْحوحٍ مُتَسائِلٍ في حَيْرَةٍ : « عَمِّ الشَّيْخُ إبْراهيمُ ! هَلْ أنا في حُلْمٍ أَمْ عِلْمٍ ؟»

« أَنْتِ ، يا بَدْرَ البُدور ، في عِلْمٍ أَجْمَلَ مِنْ أَيِّ حُلْمٍ ! كَمْ تَمَنَّيْتُ العُثورَ عَلَيْكِ لأَرُدَّ لأبيكِ بَعْضَ أَفْضالِهِ عَلَيَّ !»

نَظَرَتْ بَدْرُ البُدورِ إلى عَلِيٍّ في نَشْوَةٍ حالِمَةٍ ثُمَّ قالَتْ :

« إنَّ اللهَ لا يُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً !»

أَضافَ الشَّيْخُ إبْراهيمُ قَوْلَهُ : « حَتّى بَعْدَ رَحيلِهِ عَنْ هَذِهِ الدُّنْيا ، فَإنَّ الخَيْرَ الَّذي صَنَعَهُ لا يَموتُ بِمَوْتِهِ . »

عَلَّقَ عَلِيّ نورُ الدّين بِقَوْلِهِ وهُوَ لا يَكادُ يُصَدِّقُ ما يَدورُ أَمامَهُ : « تَمامًا مِثْلَما أَنْقَذَنا الْمَمْلوكُ الَّذي أَكْرَمَهُ أَبي عِنْدَما كانَ يَعْمَلُ عِنْدَهُ !»

سَأَلَتْ بَدْرُ البُدورِ الشَّيْخَ إبْراهيمَ : « ولِمَنْ هَذا البُسْتانُ ، يا عَمِّ إبْراهيمَ ؟»

« إنَّهُ لِرَجُلٍ كَبيرِ الْمَقامِ ، طَيِّبِ القَلْبِ ، كَريمِ الخُلُقِ ، لا يَتَأَخَّرُ عَنْ مُساعَدَةِ أَيِّ مَظْلومٍ أَوْ مَكْروبٍ ، وأَنا سَعيدٌ بالعَمَلِ في بُسْتانِهِ الجَميلِ الَّذي انْتَقَلْتُ إلَيْهِ مُنْذُ أَنْ بيعَ بُسْتانُ والِدِكَ في الْمَزادِ . »

كَسَتْ سَحابَةٌ مِنَ الحُزْنِ والأَلَمِ وَجْهَ بَدْرِ البُدورِ ، فَما كانَ مِنَ الشَّيْخِ إبْراهيمَ سِوى أَنْ قادَهُما إلى داخِلِ البُسْتانِ وهُوَ سَعيدٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ عَلَيْهِما ، وفي الوَقْتِ نَفْسِهِ لَمْ يُخْبِرْهُما بِشَخْصِيَّةِ صاحِبِ البُسْتانِ عَلى وَجْهِ التَّحْديدِ حَتّى يَطْمَئِنّا ويَدْخُلا البُسْتانَ ، ثُمَّ دَخَلَ بِهِما

القاعَةَ الْمُعَلَّقَةَ ، فَابْتَهَجا بِأَعْمِدَتِها الذَّهَبِيَّةِ ، وسَقْفِها الأَزْرَقِ الْمُرَصَّعِ بالنُّجومِ الفِضِّيَّةِ ، ونَوافِذِها الَّتي تُطِلُّ عَلى جَنَّةِ اللهِ في أَرْضِهِ . وجَلَسوا خَلْفَ إحدى النَّوافِذِ .

وتَرَكَهُما الشَّيْخُ إبْراهيمُ في نَشْوَتِهما ، وخَرَجَ لِيَعودَ بَعْدَ قَليلٍ ومَعَهُ ثَلاثَةُ غِلْمانٍ يَحْمِلونَ عَلى أَلْواحٍ فِضِّيَّةٍ ما لَذَّ وطابَ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ .

أَكَلوا هَنيئًا وشَرِبوا مَريئًا ، ثُمَّ قالَ الشَّيْخُ إبْراهيمُ لَهُما ضاحِكًا : « لَقَدْ صِرْتُما مَحْسوبَيْنِ عَلَيَّ ولا بُدَّ أَنْ أَبْحَثَ لَكُما عَنِ الْمَعيشَةِ الَّتي تَليقُ بِأَبْناءِ الأَكابِرِ ! »

أَجابَهُ عَلِيّ نورُ الدّين بِنَبَراتٍ غَلَبَ عَلَيْها الحُزْنُ : « هَذِهِ حادِثاتُ زَمَنٍ مَضى . ونَحْنُ الآنَ مِنْ أَبْناءِ السَّبيلِ ، ولا نُريدُ أَنْ نُثْقِلَ عَلَيْكَ أَوْ نُسَبِّبَ لَكَ أَيَّةَ مَتاعِبَ ! »

« حاشا للهِ ! لَقَدْ رَزَقَني اللهُ بِأَجْمَلِ ابْنَيْنِ في الدُّنْيا بَعْدَ أَنْ حُرِمْتُ مِنَ الإنْجابِ ، كَما أَنَّكُما مِنْ أَبْناءِ السَّبيلِ لِهَذِهِ الْمَلابِسِ الرَّثَّةِ . ولِذَلِكَ سَأَصْطَحِبُكُما الآنَ إلى الحَمّامِ لِتَغْييرِ مَلابِسِكُما حَتّى تَبْدُوَا لِلنّاسِ على حَقيقَتِكُما ! »

٨

جَلَسَ هارونُ الرَّشيدُ في قَصْرِهِ الَّذي يُطِلُّ عَلى البُسْتانِ مِنْ ناحِيَةٍ وعَلى نَهْرِ دِجْلَةَ مِنْ ناحِيَةٍ أخْرى . كانَ ضَوْءُ القَمَرِ قَدْ أَغْرَقَ البُسْتَانَ في كَوْنِهِ الفِضِّيِّ النّاعِسِ ، في حينَ غَرِقَ هارونُ الرَّشيدُ الَّذي انْفَرَدَ بنَفْسِهِ في تَأَمُّلاتِهِ وأَفْكارِهِ الَّتي قَلَّبَتْ أُمورَ الدَّوْلَةِ عَلى كُلِّ وُجوهِها حَتّى كَلَّ عَقْلُهُ ؛ فَقَرَّرَ النُّزولَ لِلتَّرَيُّضِ في البُسْتانِ .

أَسْرَعَ الخَدَمُ والحَشَمُ باسْتِدْعاءِ الوَزيرِ جَعْفَرِ البَرْمَكِيِّ ؛ تَلْبِيَةً لأمْرِ أميرِ الْمُؤْمِنينَ . فَما مَضَتْ لَحْظَةٌ إلاّ وقَدْ حَضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَهْبِطا مَعًا إلى طُرُقاتِ البُسْتانِ الفِضِّيَّةِ بِضَوْءِ القَمَرِ ، والْمُخَضَّبَةِ بِأَريجِ الزَّهْرِ وعِطْرِ الوَرْدِ .

سارا مَعًا في سُكونٍ جَليلٍ . وتَوَقَّفَ الخَليفَةُ لِيُنْصِتَ إلى تَغْريدِ عَنْدَليبٍ ثُمَّ سَأَلَ وَزيرَهُ : « كَيْفَ حالُ الوِلاياتِ ؟ هَلْ مِنْ أَنْباءٍ جَديدَةٍ ؟»

« كُلُّ شَيْءٍ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، عَلى ما يُرامُ ، باسْتِثْناءِ أَنَّ بَعْضَ الوُلاةِ دَأَبَ عَلى تَلْقيبِ نَفْسِهِ بِالْمَلِكِ أَوْ بِالسُّلْطانِ وهُوَ مُجَرَّدُ والٍ مُعَيَّنٍ مِنْ قِبَلِكُمْ ، و وُجودُهُ

عَلى كُرْسِيِّ الولايَةِ رَهْنٌ بِرِضاكُمْ عَنْهُ !»

« وهَلْ هَذا يَنْطَبِقُ عَلى كُلِّ الوُلاةِ في البَصْرَةِ والكُوفَةِ والْمَوْصِلِ وكِرْكوكَ وغَيْرِها ؟»

« يَنْطَبِقُ بِصِفَةٍ خاصَّةٍ عَلى والي البَصْرَةِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيِّ !»

« وهَلْ هُناكَ شَكٌّ في إخْلاصِهِ لَنا ؟! أنا لا تُهِمُّني الألْقابُ والكَلماتُ والصِّفاتُ ما دامَتْ لا تَمَسُّ الوَفاءَ والوَلاءَ لَنا . فَأَنْتَ تَعْرِفُ جَيِّدًا مَوْقِفي مِنَ الخِيانَةِ الَّتي لَيْسَ لَها جَزاءٌ عِنْدي سِوى الْمَوْتِ !»

« لَقَدْ وَضَعْتُهُ، يا مَوْلايَ ، تَحْتَ الرِّقابَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ ، خاصَّةً أَنَّهُ أَوْشَكَ عَلى تَرْكِ قِيادِهِ لِوَزيرِهِ الْمُعينِ بن ساوي الَّذي لا يُكِنُّ سِوى الشَّرِّ لِكُلِّ النّاسِ الطَّيِّبينَ والْمُخْلِصينَ !»

« فِعْلاً . وِلايَةُ البَصْرَةِ خَسِرَتْ كَثيرًا بِوَفاةِ الوَزيرِ الفَضْلِ بْنِ خاقان ! كانَ نِعْمَ النّاصِحُ الأمينُ !»

« وكانَ الوَحيدَ الَّذي اسْتَطاعَ أَنْ يوقِفَ الْمُعينَ بْنَ ساوي عِنْدَ حَدِّهِ !»

« وهَلْ أَصْبَحَ الوالي مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيِّ لُعْبَةً في يَدِهِ ؟»

« إنَّهُ دائِمُ الوِشايَةِ بِالآخَرينَ حَتّى يُظْهِرَ لَهُ مَدى إخْلاصِهِ لَهُ !»

« بِئْسَ الوالي الَّذي لا يُفَرِّقُ بَيْنَ الوِشايَةِ والأَنْباءِ الحَقيقِيَّةِ !»

تَحَرَّكَ الخَليفَةُ وإلى جِوارِهِ سارَ جَعْفَرٌ الَّذي أَضافَ قائِلاً : « مِزاجُ مَوْلايَ لَيْسَ صافِيًا هَذِهِ اللَّيْلَةَ . هَلْ أَسْتَدْعي مَجْلِسَ الأُنْسِ لِلانْعِقادِ حَتّى يُطْرِبَكُمْ إسْحَقُ النَّديمُ عَلى عودِهِ ؟»

« أيُّ حاكِمٍ يَحْمِلُ هَمَّ رَعِيَّتِهِ لا يُمْكِنُ أَنْ يَصْفُوَ مِزاجُهُ إلا لِلَحَظاتٍ عابِرَةٍ ! يَظُنُّ النّاسُ أَنَّ أَميرَ الْمُؤْمِنينَ هُوَ أَسْعَدُ خَلْقِ اللهِ ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ سِوى أَنْ يَأْمُرَ فَيُطاعَ . فَهُمْ لا يَعْلَمونَ أَنَّ الرّاعِيَ الفَقيرَ الَّذي يَعيشُ في كوخٍ عَلى ضِفافِ دِجْلَةَ مَسْئولٌ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ أَهْلِهِ فَحَسْبُ ، أَمّا أَميرُ الْمُؤْمِنينَ فَمَسْئولٌ عَنْ كُلِّ إنْسانٍ في رَعِيَّتِهِ !»

« بارَكَ اللهُ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، في جَهْدِكَ وعافِيَتِكَ ،

ومَنَحَكَ القُدْرَةَ عَلى القِيام بهَذِهِ الْمَسْئوليَّةِ الخَطيرَةِ ؛ إذْ إنَّ غَيْرَكَ مِنَ الحُكّامِ لا يَرى في كُرْسِيِّ الحُكْمِ سِوى الْمُتَعِ والْمَلَذّاتِ والْمَغانِمِ والثَّرَواتِ !»

و واصَلا سَيْرَهُما الوَئيدَ بَيْنَ أَعْطافِ البُسْتانِ الفِضِّيَّةِ الحانِيَةِ .

٩

« لَنْ نَعيشَ عالَةً عَلَيْكَ ، يا عَمِّ إبْراهيمَ . فَإذا لَمْ أَجِدْ عَمَلاً أَقْتاتُ مِنْهُ أَنا وبَدْرُ البُدورِ ، فَلا تَغْضَبْ مِنّا إذا غادَرْنا قَصْرَ الفُرْجَةِ إلى غَيْرِ رَجْعَةٍ ؛ بَحْثًا عَنْ لُقْمَةِ العَيْشِ . »

قالَها عَلِيّ نورُ الدّين في ضَوْءِ الشُّموعِ الْمُتَراقِصَةِ وَسَطَ القاعَةِ الذَّهَبيَّةِ في قَصْرِ الفُرْجَةِ ، وقَدِ اتَّكَأَتْ زَوْجَتُهُ عَلى حاشِيَةٍ إلى جِوارِهِ في مُواجَهَةِ الشَّيْخِ إبْراهيمَ الَّذي قالَ ضاحِكًا : « ابْنُ العِزِّ مِنْ أَمْثالِكَ لا يَبْحَثُ عَنِ الشَّقاءِ بِرِجْلَيْهِ !»

« ونَحْنُ لَنْ نَعيشَ هَكَذا إلى الأَبَدِ ! فَلَيْسَ مِنَ الْمَعْقولِ

أَنْ يَعْمَلَ شَيْخٌ جَليلٌ مِثْلُكَ طَوالَ النَّهارِ في الإِشْرافِ عَلى العِنايَةِ بِهَذا البُسْتانِ الجَميلِ الكَبيرِ ، وَنَقْبَعُ نَحْنُ الشَّبابَ في عُقْرِ الدّارِ ، نَأْكُلُ ونَشْرَبُ ونَنامُ ولا نَعْمَلُ شَيْئًا . »

« أَسْتَطيعُ أَنْ أُعَلِّمَكَ فَنَّ تَنْسيقِ الحَدائِقِ حَتّى أَتَمَكَّنَ مِنْ رَفْعِ شَكْواكَ لأَميرِ الْمُؤْمِنينَ الَّذي يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ الظُّلْمَ الَّذي حاقَ بِكَ وبِزَوْجَتِكَ ؛ فَهُوَ يَكْرَهُ الظُّلْمَ والظّالِمينَ ، لأَنَّهُ إِذا كانَ في إِمْكانِ أَيِّ إِنْسانٍ مَهْما تَكُنْ مَكانَتُهُ أَنْ يَخْطَفَ زَوْجَةَ رَجُلٍ آخَرَ - فَقُلْ عَلى الدُّنْيا السَّلامُ ! »

« وهَلْ يُمْكِنُ لأَيِّ إِنْسانٍ أَنْ يَرْفَعَ مَظْلَمَتَهُ إِلى أَميرِ الْمُؤْمِنينَ كَيْ يَبُتَّ فيها ؟ »

« وما العَجَبُ في ذَلِكَ ؟ »

« العَجَبُ أَنَّ وَقْتَ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ، الَّذي يَحْكُمُ هَذِهِ الدَّوْلَةَ الْمُتَرامِيَةَ الأَطْرافِ ، لا يُمْكِنُ أَن يَتَّسِعَ لِكُلِّ مَنْ يَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ بِمَظْلَمَةٍ في زَمَنٍ يَصْعُبُ فيهِ أَنْ يَجِدَ إِنْسانًا بِلا مَظْلَمَةٍ ! »

ضَحِكَ الشَّيْخُ إِبْراهيمُ ودَقَّ كَفًّا بِكَفٍّ قائِلاً : « إِنَّكَ

الآنَ تَتَكَلَّمُ بِحِكْمَةِ الشُّيوخِ ! أَيْنَ انْدِفاعُ الشَّبابِ وجُرْأَتُهُ ؟»

« ما مَرَرْتُ بِهِ أَنا وبَدْرُ البُدورِ جَعَلَنا نَتَقَدَّمُ في العُمْرِ مِئَةَ عامٍ !»

خَرَجَتْ بَدْرُ البُدورِ عَنْ صَمْتِها ، وقالَتْ :

« مَنْ هُوَ صاحِبُ هَذا البُسْتانِ ، ياعَمِّ الشَّيْخَ إبْراهيمَ ؟ لا أَعْتَقِدُ أَنَّ هُناكَ بُسْتانًا آخَرَ في بَغْدادَ كُلِّها في مِثْلِ جَمالِهِ ورَوْعَتِهِ وتَنْسيقِهِ واتِّساعِهِ !»

« أَنْتِ ، يا بَدْرَ البُدورِ ، في ذَكاءِ الْمَرْحومِ أبيكِ تَمامًا !»

« لَكِنَّ ذَكاءَهُ لَمْ يُنْقِذْهُ مِنْ بَراثِنِ اللِّئامِ والطُّفَيْلِيِّينَ والْمُنافِقينَ !»

« لا يوجَدُ إنْسانٌ كامِلٌ ، فَالكَمالُ للهِ وَحْدَهُ ! كُلُّ إنْسانٍ لَهُ ثُغْرَةُ ضَعْفٍ أَوْ أَكْثَرُ . والوَيْلُ لَهُ كُلُّ الوَيْلِ إذا عَرَفَها خُصومُهُ وتَسَلَّلوا إلَيْهِ مِنْها !»

ضَحِكَ عَلِيّ نورُ الدّينِ وقالَ : « لَكِنَّكَ ، يا شَيْخُ

إبْراهيمُ ، لَمْ تُجبْ عَنْ سُؤالِ بَدْرِ البُدورِ ! مَنْ هُوَ صاحِبُ هَذا البُسْتانِ ؟»

« سَأَقولُ لَكُما مَنْ هُوَ صاحِبُ هَذا البُسْتانِ عِنْدَما يَحينُ الوَقْتُ الْمُناسِبُ !»

« ومَتى سَيَحينُ هَذا الوَقْتُ الْمُناسِبُ ؟!»

اِبْتَسَمَ الشَّيْخُ إبْراهيمُ في حَرَجٍ وقالَ : « عِلْمُ هَذا عِنْدَ رَبِّي !»

رانَ صَمْتٌ مُشْبَعٌ بالحَيْرَةِ والتَّساؤُلِ والغُموضِ ، لَكِنَّهُ صَمْتٌ لَمْ يَسْتَمِرَّ إلا لِلَحظاتٍ ، إذْ سَرْعانَ ما سُمِعَ صَوْتُ تَصْفيقٍ مَصْحوبٍ بِصَوْتِ نِداءٍ : « يا شَيْخُ إبْراهيمُ . . يا شَيْخُ إبْراهيمُ !»

اِنْتَفَضَ الشَّيْخُ إبراهيمُ كَمَنْ عَضَّتْهُ حَيَّةٌ رَقْطاءُ ، وانْطَلَقَ إلى البابِ . وتَبادَلَ علَيّ نورُ الدّينِ وبَدْرُ البُدورِ نَظَراتٍ ذاهِلَةً ولَمْ يَعْرِفا ماذا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلا : هَلْ يَنْطَلِقانِ خَلْفَهُ لَعَلَّهُ يَكونُ في حاجَةٍ إلَيْهِما ؟ أمْ يَظَلاّنِ قابِعَيْنِ في مَكانِهِما حَتّى لا يُسَبِّبا لَهُ أَيَّ حَرَجٍ ؟

سَمِعا أَصْواتًا خارِجَ البابِ بَيْنَ الشَّيْخِ إبْراهيمَ واثْنَيْنِ

آخَرَيْنِ ، فَتَساءَلَ عَلِيّ نورُ الدّين هامِسًا : « مَنْ يا تُرى الَّذي يَسْتَطيعُ أَنْ يَدْخُلَ هَذا البُسْتانَ في اللَّيْلِ ، ويُنادِيَ عَلى الشَّيْخ إبْراهيمَ بهَذا الصَّوْتِ الآمِرِ ، وهُوَ البُسْتانُ الَّذي لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ مِنْ عامَّةِ الشَّعْبِ أَنْ يَدْخُلَهُ بِالنَّهارِ ؟»

« أَخْشى أَنْ نَكونَ قَدْ تَسَبَّبْنا لِعَمِّ الشَّيْخ إبْراهيمَ في مَتاعِبَ هُوَ في غِنًى عَنْها ! فَلا يُعْقَلُ أَنْ يُكْرِمَ ضِيافَتَنا بِهَذا الشَّكْلِ ثُمَّ يَأْتِيَ مَنْ يُؤَنِّبُهُ تَأْنيبًا قَدْ يَصِلُ إلى حَدِّ قَطْعِ عَيْشِهِ ! لَنْ أُسامِحَ نَفْسي أَبدًا لَوْ وَقَعَ لَهُ أَيُّ مَكْروهٍ بِسَبَبِنا !»

« لا داعِيَ لِلتَّخْمينات ! هَيّا نَخْرُجْ لِنَرَ ماذا يَجْري بِالخارِجِ !»

انْدَفَعَ مُسْرِعًا إلى الباب وخَلْفَهُ بَدْرُ البُدور ؛ فَإذا بِهِ يَصْطَدِمُ بِرَجُلٍ مَهيبِ الطَّلْعَةِ ، فاخِرِ الْمَلْبَسِ ، مُرَصَّعِ العِمامَةِ بِجَواهِرَ شَعَّتْ أَلْوانُها في ضَوْءِ الشُّموعِ . تَوَقَّفَ عَلِيّ نورُ الدّين مُعْتَذِرًا ومُنْحَنِيًا عَلى يَدِهِ لِيُقَبِّلَها لَكِنَّ الرَّجُلَ الْمَهيبَ سَحَبَ يَدَهُ بِقُوَّةٍ قائِلاً بِصَوْتٍ آمِرٍ :

« ماذا تَفْعَلُ هُنا ، يا فَتى ، أَنْتَ وهَذِهِ الفَتاةُ ؟»

تَلَعْثَمَ عَلِيّ نورُ الدّينِ وانْحَشَرَتِ الأَفْكارُ في عَقْلِهِ

والكَلِماتُ في حَلْقِهِ ، ونَظَراتُ الرَّجُلِ الْمُشِعَّةُ إلى وَجْهِهِ تَكادُ تُصيبُهُ بالشَّلَلِ . اسْتَنْجَدَ بنَظَراتٍ مُتَوَسِّلَةٍ بالشَّيْخِ إبْراهيمَ الواقِفِ خَلْفَهُ ، لَكِنَّهُ أَشاحَ بوَجْهِهِ بَعيدًا وكَذَلِكَ فَعَلَ الرَّجُلُ الآخَرُ الواقِفُ بجوارِهِ . انْطَلَقَتِ الأَلْفاظُ عَلى لِسانِ عَلِيّ نور الدّين دونَ أَنْ يُفَكِّرَ فيها :

« لَقَدْ تَفَضَّلَ الشَّيْخُ إبْراهيمُ واسْتَضافَنِي وزَوْجَتي ؛ فَنَحْنُ غُرَباءُ. وفي الصَّباحِ الباكِرِ - بإذْنِ اللهِ - سَنَرْحَلُ مِنْ هُنا إلى أرْضِ اللهِ الواسِعَةِ . »

رَكَعَتْ بَدْرُ البُدور وأَمْسَكَتْ بِيَدِ الرَّجُلِ الْمَهيب لِتُقَبِّلَها كَيْ يَصْفَحَ عَنْهُما ، لَكِنَّهُ سَحَبَها بشِدَّةٍ وقالَ بنَفْسِ الصَّوْتِ الآمِرِ : « لا بُدَّ مِنْ تَصْفِيَةِ الحِسابِ أَوَّلا ثُمَّ نَتْرُكُكُما تَذْهَبانِ لِحالِ سَبيلِكُما ! كَيْفَ سَمَحَ الشَّيْخُ إبْراهيمُ لِنَفْسِهِ باسْتِضافَةِ غُرَباءَ في قَصْري دونَ الحُصولِ عَلى إذْني ؟»

أَفْسَحَ الشَّيْخُ إبْراهيمُ الطَّريقَ لِلرَّجُلِ الْمَهيب قائلاً في تَضَرُّعٍ : « تَفَضَّلْ أَوَّلاً بالجُلوسِ ، يا مَوْلايَ ، ثُمَّ افْعَلْ بي ما شِئْتَ !»

دَخَلَ الخَليفَةُ لِيَجْلِسَ عَلى أَريكَةِ الصَّدارَةِ ، وعَلى يَمينِهِ جَلَسَ وَزيرُهُ جَعْفَرٌ البَرْمَكِيُّ ، في حينِ ظَلَّ ثَلاثَتُهُمْ ماثِلينَ أَمامَهُ ، ودُموعُ الحَيْرَةِ والخَوْفِ تَتَأَلَّقُ في عَيْنَيْ بَدْرِ البُدورِ ، وكَأَنَّ لِسانَها يَلْهَجُ بِدُعاءٍ للهِ كَيْ يُنْقِذَهُمْ .

قالَ الخَليفَةُ لِلشَّيْخِ إبْراهيمَ مُتَسائِلاً ومُنْذِرًا : « أ تَخْدُمُني ولا تُعْلِمُني بما يَحْصُلُ في قَصْري ؟! إذا كُنْتُ لا أَدْري ماذا يَدورُ في قَصْري - فَلا بُدَّ أنَّني لا أَعْرِفُ شَيْئًا عَمّا يَدورُ في دَوْلَتي !»

« دَوْلَتُكَ ؟! »

شَهقَ عَلِيّ نورُ الدّينِ وهُوَ يَنْطِقُها في تَساؤُلٍ مَشْدوهٍ قَطَعَهُ جَعْفَرٌ البَرْمَكِيُّ بِأَلْفاظٍ أَكَّدَها بالضَّغْطِ عَلى نُطْقِها :

« حَياتي فِداكَ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ! فَأَنا لا أَتْرُكُ وارِدَةً ولا شارِدَةً في كُلِّ أُمورِ الدَّوْلَةِ إلا وأُقَدِّمُها لَكُمْ في التَّوِّ واللَّحْظَةِ !»

شَهقَتْ بَدْرُ البُدورِ بِدَوْرِها وكَأَنَّها تَرْزَحُ تَحْتَ وَطْأَةِ كابوسٍ لا تَسْتَطيعُ الاسْتيقاظَ مِنهُ : « أَميرُ الْمُؤْمِنينَ ؟!»

اِلْتَفَتَ هارونُ الرَّشيدُ إلى الشَّيْخِ إبْراهيمَ قائِلاً :

« وهَذِهِ جَرِيمَةٌ أُخْرى ارْتَكَبْتَها ، يا شَيْخُ إبْراهيمُ ! لَمْ تُعْلِمْني بما يَدورُ في قَصْري ، كَما أَنَّكَ لَمْ تُعْلِمْهُما بأَنَّهُما يُقيمانِ في أَحَدِ قُصورِ الخَليفَةِ ! »

تَهَدَّجَ صَوْتُ الشَّيْخِ إبْراهيمَ في هَمْسٍ مَبْحوحٍ :

« لَكَ أَنْ تَفْعَلَ بي ما تَشاءُ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ! فَقَدْ كانَ كُلُّ هَمّي أَنْ أُكْرِمَ الغَريبَ وأَرُدَّ جَميلَ النُّعْمانِ بْنِ كاظِمٍ شَهْبَنْدَرِ تُجّارِ بَغْدادَ في ابْنَتِهِ بَدْرِ البُدورِ ، الَّتي لاقَتِ الأَمَرَّيْنِ بَعْدَ وَفاتِهِ مُفْلِسًا ! »

ابْتَسَمَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ في حُنُوٍّ عَجيبٍ ، سائِلاً عَلِيّا نورَ الدّين : « وأَنْتَ ، يا بْنَ الفَضْلِ بْنِ خاقانَ ، ماذا جَرى لَكَ بَعْدَ وَفاةِ أبيكَ ؟ لا بُدَّ أَنَّني سَأَسْتَمِعُ إلى قِصَصٍ وحِكاياتٍ تُزيلُ عَنّي الضّيقَ الَّذي يَنْتابُني هَذِهِ اللَّيْلَةَ ! »

« وَكَيْفَ عَرَفْتَ ، يا مَوْلايَ ، أَنَّني ابْنُ الفَضْلِ بْنِ خاقان ؟! »

قالَها عَلِيّ نورُ الدّين في مُحاوَلَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الذُّهولِ الَّذي جَثَمَ عَلى كاهِلِهِ ، لَكِنَّ الإجابَةَ غَيْرَ الشّافِيَةِ جاءَتْ

عَلى لِسانِ جَعْفَرِ البَرْمَكِيِّ الَّذي أَسْرَعَ بِالقَوْلِ :

« مَوْلايَ أَميرَ الْمُؤْمِنينَ لا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ !»

جَلْجَلَ صَوْتُ هارونَ الرَّشيدِ مَعَ رَعَشاتِ الشُّموعِ الَّتي داعَبَتْها هَبّاتُ النَّسيمِ الْمُحَمَّلِ بِعِطْرِ البُسْتانِ : «هَيّا ! فيمَ الانْتِظارُ ؟ !»

لَمْ يَجِدْ عَلِيّ نورُ الدّين ومَعَهُ بَدْرُ البُدورِ حَرَجًا في الجُلوسِ عَلى الحَشايا الْمُتَراصَّةِ عِنْدَ قَدَمَي الخَليفَةِ ، وشَرَعَ في حِكايَةِ قِصَّتِهِ ، وهُوَ يَتَمَنّى في صَميمِ قَلْبِهِ ألا يَكونَ الأمْرُ مُجَرَّدَ أضْغاثِ أَحْلامٍ ساحِرَةٍ ، يَسْتَيْقِظُ مِنْها في لَحْظَةٍ غادِرَةٍ وكَأَنَّها لَمْ تَكُنْ .

١٠

لَمْ تَنْطَفِئْ نارُ الانْتِقامِ الْمُتَأَجِّجَةُ في قَلْبِ الْمُعينِ بْنِ ساوي ، فَانْبَثَّتْ عُيونُهُ في كُلِّ مَكانٍ بَحْثًا عَنْ عَلِيّ نورِ الدّين . وكانَتْ مِحْنَتُهُ أنَّ كُلَّ الخُيوطِ الَّتي حاوَلَ الإِمْساكَ بِها في بَحْثِهِ قَدْ تَقَطَّعَتْ ولَمْ تَقُدْهُ إلى أَيَّةِ نَتيجَةٍ .

ولَمْ تَقْتَصِرْ مِحْنَتُهُ على هَذا الْمَأْزِق الَّذي كانَ يُمْكِنُ أَنْ يَنْساهُ أوْ يَتجاهَلَهُ أَوْ يَتَناساهُ ، بَلْ تَحَوَّلَتْ إلى كابوس يُطارِدُهُ باللَّيْلِ قَبْلَ النَّهارِ ؛ إذْ أَصَرَّ عَلِيّ نورُ الدّين أَنْ يزورَهُ في الْمَنامِ كُلَّما غَفَتْ عَيْناهُ .

وأَصْبَحَ الهَمُّ الأكْبَرُ لِعَلِيّ نورِ الدّينِ أنْ يَسْتَعيدَ كَرامَتَهُ في نَظَرِ أهالي البَصْرَةِ ، الَّذينَ شَهدوا عِزَّ أبيهِ ومَجْدَهُ ثُمَّ رَأَوْا ذُلَّ ابْنِهِ وهَوانَهُ . وقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِلِقاءِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ الَّذي لَمْ يَكُنْ يُراوِدُهُ في أَعْظَمِ أَحْلامِهِ سَعادَةً . بَلْ إنَّهُ نَجَحَ هُوَ وزَوْجَتُهُ في دُخولِ قَلْبِ الخَليفَةِ الَّذي رَقَّ لِحالِهِما وسَعِدَ بوُجودِهِما ، لِدَرَجَةِ أَنَّهُ قَرَّرَ أنْ يُساعِدَهُما في اسْتِرْدادِ الْمَكانَةِ الرَّفيعَةِ الَّتي كانَ مِنْ حَقِّهِما أنْ يَرِثاها عَنْ أَبَوَيْهِما .

وكَتَبَ الخَليفَةُ لِعَلِيّ نورِ الدّين وَرَقَةً إلى والي البَصْرَةِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيِّ يَأْمُرُهُ فيها بِالآتي ، بَعْدَ أَنْ بَدَأَها بِالبَسْمَلَةِ :

« أمّا بَعْدُ ، فَإِنَّ هَذا الكِتابَ مِنْ هارونَ الرَّشيدِ بْنِ

الْمَهْدِيِّ إلى حَضْرَةِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيِّ الْمَشْمولِ بنِعْمَتي ، الَّذي جَعَلْتُهُ نائبًا عَنّي في بَعْضِ مَمْلَكَتي . أُعَرِّفُكَ أنَّ الْمُوَصِّلَ إلَيْكَ هَذا الكِتابَ نورُ الدّينِ بْنُ خاقان الوَزير ، فَساعَةَ وُصولِهِ عِنْدَكُمْ تَنْزِعُ نَفْسَكَ مِنَ الولايَةِ وتُجْلِسُهُ مَكانَكَ ، فَإنّي قَدْ وَلَّيْتُهُ عَلى ما كُنْتُ وَلَّيْتُكَ عَلَيْهِ سابِقًا ، فَلا تُخالِفْ أَمْري ، والسَّلامُ . »

ثُمَّ أَعْطى عَلِيّا نورَ الدّينِ بْنَ خاقان الكِتابَ بَعْدَ أنْ طَواهُ ، فَأَخَذَهُ وقَبَّلَهُ ، وكانَ عَلى وَشْكِ أنْ يَضَعَهُ في عِمامَتِهِ ، لَكِنَّهُ تَرَدَّدَ لِلَحَظاتٍ في شَوْقٍ لَمْ يَغِبْ عَنْ أميرِ الْمُؤْمِنينَ الَّذي قالَ لَهُ ضاحِكًا في سَعادَةٍ :

« أَعْرِفُ أَنَّكَ عَلى وَشْكِ الْمَوْتِ شَوْقًا لِمَعْرِفَةِ ما في الكِتابِ . اِقْرَأْهُ ؛ فَإنَّ مِنْ حَقِّكَ أنْ تَعْرِفَ ما أنْتَ مُقْدِمٌ عَلَيْهِ ! »

« حَفِظَكَ اللهُ لَنا ذُخْرًا ، يا أميرَ الْمُؤْمِنينَ ! فَإنَّ أَفْضالَكَ عَلَيْنا أكْبَرُ مِنْ أنْ تُرَدَّ . كُلُّ ما نَمْلِكُهُ الدُّعاءُ لَكُمْ بِالتَّوْفيقِ والسَّدادِ والصِّحَّةِ وطولِ العُمْرِ . »

« الفَضْلُ فَضْلُ اللهِ ، يا بُنَيَّ . فُضَّ الكِتابَ واقْرَأْهُ وقُلْ لي كُلَّ ما في قَلْبِكَ . »

فَضَّ عَلِيّ نورُ الدينِ الكِتابَ ، وجَرَت عَيْناهُ على سُطورِهِ في لَهْفَةٍ تَحَوَّلَتْ إلى ذُهولٍ عَقَدَ لِسانَهُ ، فَلَمْ يَسْتَطِعِ النُّطْقَ إلا بَعْدَ أنِ اسْتَوْعَبَ الْمَكْتوبَ ، والخَليفَةُ يُتابِعُهُ بِنَظَراتٍ باسِمَةٍ سَعيدَةٍ .

قالَ بِنَبَراتٍ هامِسَةٍ مَبْحوحَةٍ : « مَوْلايَ ، هَلْ يُمْكِنُ أنْ أكونَ والِيًا عَلى البَصْرَةِ هَكَذا كَلَمْحِ البَصَرِ ؟!»

« هَلْ أنْتَ خائِفٌ ؟ إذا كُنْتَ خائِفًا تَكَلَّمْ وسَأرْجِعُ في قَراري فَوْرًا ! فَأَنا أشْتَرِطُ - أوَّلَ ما أَشْتَرِطُ في الوالي أنْ يَكونَ شُجاعًا !»

« أَنا لَسْتُ خائِفًا ، يا مَوْلايَ ! إنَّما أرَى أنَّ هَذا أكْثَرُ مِمّا أَسْتَحِقُّ !»

« لَسْتَ أَنْتَ الَّذي تَرى ، وَإنَّما أَنا الَّذي أَرى !»

« أُعْذُرْني ، يا مَوْلايَ ، فَلَسْتُ مُعْتادًا أنْ أُخاطِبَ أميرَ الْمُؤْمِنينَ !»

« افْتَحْ لي قَلْبَكَ ؛ فَأَنا أُحِبُّ صَراحَتَكَ وبَراءتَكَ ونَقاءَكَ ، وهِيَ خَواصُّ لا يُمارِسُها النّاسُ كَثيرًا في حَضْرَةِ أَميرِ الْمُؤْمنينَ !»

« لَكِنَّ الوالِيَ مُحَمَّدَ بْنَ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيّ كانَ عادِلاً مَعَ أبي ، ولَمْ يَنْقَلِبْ ضِدّي إلا نَتيجَةً لِوِشايَةِ وَزيرِهِ الْمُعينِ ابْنِ ساوي !»

« ولِهَذا السَّبَبِ قَرَّرْتُ أنْ أعْزِلَهُ . فَالوالي الَّذي يَفْتَحُ أُذُنَيْهِ لِلوشايَةِ يُصْبِحُ أُلْعوبَةً في يَدِ الواشي ، وبِالتّالي تُصْبِحُ وِلايَتُهُ قارِبًا بِلا دَفَّةٍ ، فَتَلْعَبُ بِهِ الأَمْواجُ . وإذا اشْتَدَّتْ فَإِنَّهُ يَغْرَقُ بِمَنْ فيهِ . وقَدْ نِلْتَ إعْجابي لأَنَّكَ اسْتَطَعْتَ الصُّمودَ بَعْدَ أنْ ضاعَ مِنْكَ كُلُّ العِزِّ الَّذي عِشْتَهُ في كَنَفِ أبيكَ ، وعَلى ثَرْوَتِهِ بَعْدَ رحيلِهِ . وعَجَزَ الْمُعينُ ابْنُ ساوي عَنْ أنْ يَنالَ مِنْكَ بِرَغْمِ فَقْرِكَ وعَوَزِكَ وبُؤْسِكَ . »

قَبَّلَ عَلِيّ نورُ الدّين الكِتابَ ثُمَّ طَواهُ وحَطَّهُ في عِمامَتِهِ ، وانْحَنى لأميرِ الْمُؤْمِنينَ قائِلاً : « أَمْرُ مَوْلايَ

أَميرِ الْمُؤْمِنينَ . فَلْيُساعِدْني اللهُ (عَزَّ و جَلَّ) عَلى أنْ أكونَ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّكُمْ . »

« اِعْتَبِرْ هَذِهِ الْمُهِمَّةَ أوَّلَ امْتِحانٍ لَكَ كَوالٍ عَلى البَصْرَةِ. وأنا واثِقٌ بِقِيامِكَ بِها بِنَجاحٍ . لَكِنْ لأنَّ الأُمورَلَمْ تَسْتَقِرَّ بَعْدُ ، اتْرُكْ زَوْجَتَك هُنا . سَتُحْمَلُ إلى القَصْرِ عَلى الرُّحْبِ والسَّعَةِ ، وسَأُفْرِدُ لَها مَنْزِلاً وَحْدَها ، وسَأوكِلُ مَنْ يَخْدُمُها ، فَهِيَ في مَكانَةِ ابْنَتي تَمامًا ، وبِمُجَرَّدِ أنْ تَحْسِمَ الأُمورَ في البَصْرَةِ سَأُرْسِلُ إلَيْكَ خُلْعَةً في صُحْبَةِ زَوْجَتِكَ بَدْرِ البُدورِ . »

١١

وَطِئَتْ أَقْدامُ عَلِيّ نورِ الدّين أَرْضَ البَصْرَةِ مَرَّةً أخْرى وكانَ يَظُنُّ أَنَّهُ تَرَكَها بِلا رَجْعَةٍ .. هَرْوَلَ في طُرُقاتِها صَوْبَ قَصْرِ الوالي وبَعْضُ النَّظَراتِ الْمَشْدوهَةِ تَحُطُّ على وَجْهِهِ بَيْنَ تَصْديقٍ وتَكْذيبٍ ، إذْ بَدا مَنْظَرُهُ في ثِيابِهِ الفاخِرَةِ الثَّمينَةِ كَأَميرٍ عَرَبِيٍّ لا يَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى ذَلِكَ

البائِسِ الْمُتَسَوِّلِ ، الَّذي كانَ يَرْتَدي الأسْمالَ البالِيَةَ ويَسْكُنُ مَعَ زَوْجَتِهِ الكوخَ الْمَهْجورَ عَلى ساحِلِ البَحْرِ .

بَلَغَ قَصْرَ الوالي فَصاحَ صَيْحَةً عَظيمَةً هُرِعَ الحُرّاسُ عَلى أثَرِها لِمَعْرِفَةِ مَصْدَرِها فَلَمْ يَعْرِفوهُ ، وإنْ كانَ مَنْظَرُهُ الْمَهيبُ قَدْ أَوْقَفَهُمْ عِنْدَ حَدِّهِمْ وهُوَ يُعْلِنُ عَنْ نَفْسِهِ ، فَهُرِعَ أَحَدُهُمْ لإبْلاغِ الوالي بِالخَبَرِ ، فَأَمَرَ بِدُخولِهِ عَلى الفَوْرِ . عِنْدَئِذٍ حَضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ وقَبَّلَ الأرْضَ قُدّامَهُ ، ثُمَّ أخْرَجَ الوَرَقَةَ وأعْطاهُ إيّاها . فَلَمّا رَأى عُنْوانَ الكِتابِ بِخَطِّ أميرِ الْمُؤْمِنينَ الَّذي يَعْرِفُهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ، قامَ واقِفًا عَلى قَدَمَيْهِ وقَرَأهُ بِلَهْفَةٍ وإمْعانٍ ، ثُمَّ قَبَّلَهُ ثَلاثَ مَرّاتٍ قائِلاً بِصَوْتٍ مُرْتَعِشِ النَّبَراتِ :

« السَّمْعُ والطّاعَةُ للهِ (تعالى) ولأميرِ الْمُؤْمِنينَ . »

ثُمَّ أَحْضَرَ الوُلاةَ الأرْبَعَةَ والأُمَراءَ لِيَشْهَدوا عَلَيْهِ وهُوَ يَخْلَعُ نَفْسَهُ مِنَ الولايَةِ ويُوَلِّي عَلِيّا نورَ الدّينِ مَكانَهُ ، لَكِنَّ الوَزيرَ الْمُعينَ بْنَ ساوي كانَ قَدْ حَضَرَ وهُوَ يُحاوِلُ أنْ يُخْفِيَ ذُهولَهُ وأنْ يَتَمالَكَ نَفْسَهُ ، طالِبًا قِراءَةَ كِتابِ

أميرِ الْمُؤْمِنينَ حَتّى يُشارِكَ في تَوْلِيَةِ عَلِيّ نور الدّين بصِفَتِهِ الوَزيرَ الأوَّلَ ، فَأَعْطاهُ الوالي الوَرَقَةَ ، فَلَمّا قَرَأها قَطَعَها عَنْ آخِرِها وأَخَذَها في فَمِهِ ومَضَغَها ثُمَّ ابْتَلَعَها ؛ فَقالَ لَهُ الوالي في غَضَبٍ عارِمٍ :

« ويْلَكَ ! ما الَّذي حَمَلَكَ عَلى هَذِهِ الفِعالِ ؟! »

أشارَ الْمُعينُ بْنُ ساوي بِمُنْتَهى الاحْتِقارِ لِعَلِيّ نور الدّين ، والشَّرَرُ يَتَطايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، ودَقّاتُ قَلْبِهِ تَكادُ تَعْلو نَبَراتِ صَوْتِهِ :

« إنَّ هَذا ما اجْتَمَعَ بِالخَليفَةِ ولا بِوَزيرِهِ . فَمُنْذُ مَتى كانَ الْمُتَسَوِّلونَ وأبْناءُ السَّبيلِ قادِرينَ عَلى لِقاءِ أميرِ الْمُؤْمِنينَ الَّذي لا يُمْكِنُ أنْ يُضيعَ وَقْتَهُ الغالِيَ الثَّمينَ مَعَ مِثْلِ هَذا الْمُتَسَوِّلِ ؟! هَلِ الوُصولُ إلى أعْتابِهِ بِهَذِهِ السُّهولَةِ والبَساطَةِ ؟ إنَّما هُوَ شَيْطانٌ مَكّارٌ وَقَعَ بِوَرَقَةٍ فيها خَطُّ الخَليفَةِ فَحاكاها وكَتَبَ فيها ما أرادَ . فَلأيِّ شَيْءٍ تَعْزِلُ نَفْسَكَ مِنَ السَّلْطَنَةِ مَعَ أنَّ الخَليفَةَ لَمْ يُرْسِلْ إلَيْكَ رَسولاً بِخَطٍّ شَريفٍ ؟ ولَوْ كانَ الأمْرُ صَحيحًا لأرْسَلَ مَعَهُ حاجِبًا أوْ وَزيرًا ، لَكِنَّهُ جاءَ وَحْدَهُ . »



فَتَساءَلَ الوالي : « وكَيْفَ يَسْتَطيعُ مُحاكاةَ خَطِّ أميرِ المُؤْمنينَ بهَذا الإتْقانِ ؟! »

أجابَهُ الوَزيرُ في حَسْمٍ قاطعٍ : « إنَّ مَنْ يَتَلَبَّسُهُ الشَّيْطانُ يُمْكِنُ أنْ يَأْتِيَ بأيِّ شَرٍّ يَتَفَتَّقُ عَنْهُ عَقْلُهُ ! »

« وكَيْفَ العَمَلُ الآنَ ؟! »

« لا بُدَّ أنْ نَعْرِفَ الحَقيقَةَ حَتّى يَطْمَئِنَّ قَلْبُكَ قَبْلَ أنْ تَخْلَعَ نَفْسَكَ مِنَ الوِلايَةِ . أرْسِلْ مَعي هَذا الشّابَّ المُخادِعَ وأنا آخُذُهُ وأتَسَلَّمُهُ مِنْكَ ، وأرْسِلُهُ في صُحْبَةِ حاجِبٍ إلى مَدينَةِ بَغْدادَ . فَإنْ كانَ كَلامُهُ صَحيحًا يَأْتينا بخَطٍّ شَريفٍ وتَقْليد ، وإنْ كانَ غَيْرَ صَحيحٍ يُرْسِلونَهُ إلَيْنا مَعَ الحاجِبِ وأنا آخُذُ حَقّي مِنْ غَريمي . »

فَلَمّا سَمِعَ الوالي كَلامَ الوَزيرِ دَخَلَ عَقْلَهُ ، ثُمَّ صاحَ عَلى الغِلْمانِ فَطَرَحوهُ وضَرَبوهُ إلى أنْ أغْمِيَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أمَرَ أنْ يَضَعوا في رِجْلَيْهِ قَيْدًا . وصاحَ على السَّجّان ، فَلَمّا حَضَرَ قَبَّلَ الأرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ نَهَضَ لِيَتَلَقّى الأوامِرَ . وكانَ هَذا السَّجّانُ يُقالُ لَهُ قُطَيْطٌ ، فَأمَرَهُ الوالي بقَوْلِهِ : « يا قُطَيْطُ ، أُريدُ أنْ تَأْخُذَ هَذا وتَرْمِيَهُ في زِنْزانَةٍ

في السِّجْنِ ، وتُعاقِبَهُ باللَّيْلِ والنَّهارِ حَتّى تَسْمَعَ العِقْبانُ في السَّماءِ صُراخَهُ . »

فَقالَ لَهُ السَّجّانُ بِصَوْتٍ نَضَحَ عَلَيْهِ التَّأثُّرُ على غَيْرِ العادَةِ : « سَمْعًا وطاعَةً . »

حاوَلَ عَلِيّ نورُ الدّينِ أنْ يَفْتَحَ فَمَهُ لِيُدافِعَ عَنْ نَفْسِهِ ، لَكِنَّ الوَزيرَ الْمُعينَ بْنَ ساوي عاجَلَهُ بِلَطْمَةٍ عَلى وَجْهِهِ صائِحًا : « اخْرَسْ ، يا لِصُّ ! تُريدُ أنْ تَسْرِقَ كُرْسِيَّ الوِلايَةِ في غَفْلَةٍ مِنَ الزَّمَنِ بِلُعْبَةٍ قَذِرَةٍ تَفَتَّقَ عَنْها عَقْلُكَ الشَّيْطانِيُّ ! لا بُدَّ أنْ تَدْفَعَ حَياتَكَ ثَمَنًا لَها ! »

أَسْرَعَ السَّجّانُ لِيَجُرَّ عَلِيًّا نورَ الدّينِ خارِجًا وقَدِ اسْتَرْخى الوالي عَلى كُرْسِيِّهِ سَعيدًا بِوَزيرِهِ الفَذِّ ، الْمُخْلِصِ ، الأمينِ ، الَّذي لَوْلاهُ لَصَدَّقَ هَذا الْمُحْتالَ وفَقَدَ عَرْشَهُ في غَمْضَةِ عَيْنٍ .

١٢

اِسْوَدَّتِ الدُّنْيا في عَيْنَيْ عَلِيّ نورِ الدّينِ ولَمْ يُصَدِّقْ ما كانَ يَجْري لَهُ والسَّجّانُ يُدْخِلُهُ السِّجْنَ ويُقْفِلُ عَلَيْهِ

البابَ . لَكِنَّ اللهَ (سُبْحانَهُ وتَعالى) لا يَنْسى عِبادَهُ الطَّيِّبينَ الْمُخْلِصينَ ؛ فَقَدْ فوجِئَ بالسَّجّانِ وهُوَ يُودِعُهُ مَحْبِسَهُ ، يُصْدِرُ أمْرَهُ بِكَنْسِ مِصْطَبَةٍ وَراءَ الباب وفَرْشِها بسَجّادَةٍ ومِخَدَّةٍ أَقْعَدَ عَليًا نورَ الدّين عَلَيْها وفَكَّ قَيْدَهُ وأَحْسَنَ إلَيْهِ . وكانَ الوَزيرُ في كُلِّ يَوْمٍ يُرْسِلُ إلى السَّجّانِ ويَأْمُرُهُ بِضَرْبِهِ ، والسَّجّانُ يَدَّعي أنَّهُ يُعاقِبُهُ ، ويَصيحُ ويَصْرُخُ أَلَمًا بَدَلاً مِنْهُ حَتّى تَصِلَ الأخْبارُ أوَّلاً بأوَّلَ إلى الوَزير ، في حين أنَّ السَّجّانَ كانَ يُلاطِفُهُ ويُداعِبُهُ ويَتَمَنّى لَهُ فَرَجًا قَريبًا . فَهُوَ لَمْ يَنْسَ فَضْلَ أبيهِ الوَزيرِ الفَضْلِ بْنِ خاقان عَلَيْهِ عِنْدَما أنْقَذَهُ مِنَ التَّسَوُّلِ وأَلْحَقَهُ بالعَمَلِ سَجّانًا في سِجْنِ الوِلايَةِ . وها هِيَ الأيّامُ قَدْ دارَتْ دَوْرَتَها لِيَرُدَّ إلى ابْنِهِ بَعْضًا مِنْ فَضْلِ أبيهِ عَلَيْهِ .

تَوَطَّدَتْ أواصِرُ الصَّداقَةِ بَيْنَ عَلِيّ نورِ الدّين والسَّجّانِ قُطَيْطٍ ، وحَمِدَ اللهَ عَلى أنَّ الْمُصيبَةَ تَوَقَّفَتْ لِبَعْضِ الوَقْتِ الَّذي يَسْتَطيعُ فيهِ التَّفْكيرَ في طَريقَةٍ لِلخُروجِ مِنْها .

انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَخْبارُ الدُّنْيا كُلِّها ، فَلَمْ يَكُنْ قُطَيْطٌ يَعْرِفُ شَيْئًا خارِجَ حُدودِ وظيفَتِهِ . ولَمْ تَغِبْ بَدْرُ البُدورِ عَنْ بالِهِ

لَحْظَةً واحِدَةً ، وكَثيرًا ما زارَتْهُ في الْمَنامِ تُواسيهِ وتُؤَكِّدُ لَهُ أنَّ نَجاتَهُ سَتَكونُ عَلى يَدَيْها .

ذاتَ صَباحٍ دَخَلَ السَّجّانُ عِنْدَ عَلِيّ نور الدّين الَّذي سَأَلَهُ عَمّا إذا كانَ في اسْتِطاعَتِهِ أنْ يُهَرِّبَ لَهُ خِطابًا إلى الشَّيْخِ إبْراهيمَ الْمَسْئولِ عَنْ بُسْتانِ النُّزْهَةِ في بَغْدادَ ، فَوَعَدَهُ بِأَنَّهُ سَيَبْذُلُ أَقْصى ما في وُسْعِهِ إذا كانَ في هذا إنقاذٌ لِحَياتِهِ . وفي الحالِ دَبَّرَ وَرَقَةً و ريشَةً وحِبْرًا ، وَ وَقَفَ خارِجَ الزِّنْزانَةِ حَتّى يَطْمَئِنَّ لِعَدَمِ مُرورِ أيِّ أحَدٍ مِنْ كِبارِ الْمَسْئولينَ . وبمُجَرَّدِ أنِ انْتَهى عَلِيّ نورُ الدّين مِنْ كِتابَةِ خِطابِهِ إلى الشَّيْخِ إبْراهيمَ - دَخَلَ قُطَيْطٌ لِيَأْخُذَ الوَرَقَةَ ويُخْفِيَها في عِمامَتِهِ وهُوَ يَعِدُهُ بإرْسالِها مَعَ صَديقٍ لَهُ يَعْمَلُ رُبّانًا لأحَدِ الْمَراكِبِ العامِلَةِ بَيْنَ البَصْرَةِ وبَغْدادَ .

سَرَتِ الرّاحَةُ في أرْجاءِ نَفْسِ عَلِيٍّ الْمَكْدودَةِ ، وشَعَرَ كَأَنَّ جَبَلاً راسِيًا انْزاحَ مِنْ عَلى كاهِلِهِ . وتَمَنّى أنْ يُتِمَّ اللهُ فَضْلَهُ عَلَيْهِ بوُصولِ رِسالَتِهِ إلى أميرِ الْمُؤْمِنينَ . فَكُلُّ ما يَتَمَنّاهُ هُوَ أنْ يَعودَ إلى حَبيبَةِ عُمْرِهِ بَدْرِ البُدورِ أوْ تَعودَ هِيَ إلَيْهِ، ويَعيشا مَعًا حَتّى آخِرِ العُمْرِ ، سَواءٌ في البَصْرَةِ أوْ

بَغْدادَ أوْ في أيِّ مَكانٍ آخَرَ ، فَلَمْ يَكُنْ كُرْسِيُّ الوِلايَةِ مَطْلَبًا لَهُ في يَوْمٍ مِنَ الأيّامِ .

١٣

انْتَفَضَتْ بَدْرُ البُدورِ جالِسَةً في فِراشِها ، وقَلْبُها يَنْتَفِضُ رُعْبًا مِمّا رَأتْهُ في مَنامِها . رَأتْ زَوْجَها وقَدْ قادَهُ الْمُعينُ بْنُ ساوي لِيُعْدَمَ . ولَوْ كانَتِ الرَّسائِلُ تَرِدُ مِنَ البَصْرَةِ تُعَرِّفُها شَيْئًا عَنْ أحْوالِهِ لاسْتَطاعَتْ أنْ تَهْزَأَ بِهَذا الكابوسِ السَّخيفِ ، لَكِنَّ انْقِطاعَ أخْبارِهِ أرْبَعينَ يَوْمًا ، سَواءٌ أَ كانَتْ أخْبارًا سَعيدَةً أمْ حَزينَةً ، يَدُلُّ عَلى أنَّ كابوسَها هَذا لَمْ يَكُنْ كاذِبًا ، وأنَّ زَوْجَها في ضيقٍ شَديدٍ لا يَسْتَطيعُ الخُروجَ مِنْهُ .

كانَتْ بَدْرُ البُدورِ قَدْ فَكَّرَتْ مِرارًا في مُقابَلَةِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ لِتُلْقِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَخاوِفِها لَعَلَّهُ يُريحُها ، خاصَّةً وأنَّهُ مَنَحَها الشَّرَفَ بِلِقائِهِ في أيِّ وَقْتٍ تَشْعُرُ فيهِ بِحاجَةٍ مُلِحَّةٍ لا يُمْكِنُ أنْ يُلَبِّيَها إلا هُوَ . لَكِنَّها كانَتْ في اللَّحْظَةِ

الأخيرَةِ تَخْجَلُ وتَتَرَدَّدُ نَظَرًا لِلْمَسْئولِيّاتِ الجَسيمَةِ الْمُلْقاةِ عَلى عاتِقِهِ . لَكِنَّها بَعْدَ هَذا الكابوسِ قَرَّرَتْ أنْ تُقابِلَهُ حَتّى تَطْمَئِنَّ عَلى مَصيرِ زَوْجِها الَّذي لَمْ يَكُنْ يُريدُ كُرْسِيَّ الوِلايَةِ ، بَلْ كانَ ذَلِكَ قَرارَ أميرِ الْمُؤْمِنينَ الَّذي يَجِبُ عَلَيْهِ أنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وَرْطَتِهِ الَّتي وَضَعَهُ فيها ، هَذا إذا كانَ في وَرْطَةٍ حَقيقِيَّةٍ . فَهِيَ لَمْ تَزَلْ تَتَمَنّى أنْ يَكونَ هَذا الكابوسُ مُجَرَّدَ أضْغاثِ أحْلامٍ .

كانَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ كَريمًا كَعادَتِهِ فَصَرَّحَ لَها بِلِقائِهِ في الْمَساءِ . وجَلَسَتْ على حَشِيَّةٍ حَريرِيَّةٍ حَمْراءَ عِنْدَ قَدَمَيْهِ وتَدَفَّقَ لِسانُها بِمَخاوِفِها وهَواجِسِها ورَغْبَتِها الشَّديدَةِ في السَّفَرِ إلَيْهِ لِلاطْمِئْنانِ عَلَيْهِ ، فَإمَّا أنْ تَعيشَ مَعَهُ أوْ تَموتَ مَعَهُ . كانَتْ تَلْتَمِسُ الطُّمَأْنينَةَ مِنْ كَلِماتِهِ لَعَلَّهُ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ زَوْجِها ، لَكِنَّ كَلِماتِهِ لَمْ تُطَمْئِنْها :

« فِعْلاً ، لَمْ أَسْمَعْ مِنْهُ أَوْ عَنْهُ شَيْئًا مُنْذُ رَحيلِهِ إلى البَصْرَةِ ، كَما أَنَّني أَرْسَلْتُ إلَيْهِ هَدِيَّةً ثَمينَةً أُهَنِّئُهُ بِها بِكُرْسِيِّ الوِلايَةِ ، فَلَمْ يَأْتِني الرَّدُّ بِأَنَّهُ تَسَلَّمَها . لا بُدَّ أَنْ يَكونَ في كابوسِكِ شَيْءٌ مِنَ الصِّحَّةِ ، ولا بُدَّ أنْ أَتَّخِذَ

قَرارًا فَوْرِيًّا في هَذا الشَّأْنِ !»

رانَ صَمْتٌ كَئيبٌ بَيْنَهُما ، وقَدِ اسْتَغْرَقَ هارونُ الرَّشيدُ في التَّفْكيرِ الَّذي لَمْ يَقْطَعْهُ سِوى دُخولِ الشَّيْخِ إبْراهيمَ الَّذي قَدَّمَ إلَيْهِ رسالةً مَطْوِيَّةً . أَمْسَكَ بِها وفَضَّها وشَرَعَ في قِراءَتِها والدَّهْشَةُ في نَظَراتِهِ تَتَحَوَّلُ إلى ذُهولٍ ، وقَدْ بَدا عَلَيْهِ أنَّهُ يُعيدُ القِراءَةَ الْمُتَأَنية أكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ . وتَسارَعَتْ دَقّاتُ قَلْبِ بَدْرِ البُدورِ وهِيَ تَتَبادَلُ النَّظَراتِ الْمُتَسائِلَةَ مَعَ الشَّيْخِ إبْراهيمَ، الَّذي وَمَضَ في عَيْنَيْهِ الخابِيَتَيْنِ خَوْفٌ غَريبٌ لَمْ يُفْصِحْ عَنْ مَعْرِفَتِهِ بِمَضْمونِ الرِّسالَةِ .

فَجْأَةً صَفَّقَ الخَليفَةُ بِيَدَيْهِ طالِبًا حُضورَ الوَزيرِ جَعْفَرٍ البَرْمَكِيِّ في الحالِ ، وبَدْرُ البُدورِ في دُوّامَةٍ مِنَ الأفْكارِ الشّارِدَةِ والهَواجِسِ الغامِضَةِ الَّتي أَوْحَتْ إلَيْها بِأَنَّ هَذِهِ الرِّسالَةَ تَخُصُّ زَوْجَها . لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تُزيحَ نَظَراتِها بَعيدًا عَنْ وَجْهِ الخَليفَةِ الَّذي الْتَقَطَ ما يَدورُ داخِلَها ، فَقالَ لَها في اقْتِضابٍ : « مَخاوِفُكِ كانَتْ في مَحَلِّها !»

صاحَتْ بَدْرُ البُدورِ : « هَلْ قَتَلوا زَوْجي ؟!»

« لَيْسَ بَعْدُ . »

كانَتْ عَلى وَشْكِ أنْ تُواصِلَ تَساؤُلَها الْمَسْعورَ لَوْلا دُخولُ جَعْفَرٍ البَرْمَكِيِّ الَّذي مَثَلَ بَيْنَ يَدَي الخَليفَةِ الَّذي أَمَرَهُ : « اِنْطَلِق الآنَ بأسْرَعِ ما يُمْكِنُ إلى البَصْرَةِ ومَعَكَ مِئَةُ فارِسٍ مِنْ أَشْجَعِ وأَقْوى الفُرْسانِ ، وخَلِّصْ عَلِيًّا نورَ الدّينِ مِنْ سَجْنِهِ ، واضْرِبْ عُنُقَ الْمُعينِ بْنِ ساوي ، وأْلْقِ بمُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيِّ في السِّجْنِ حَتَّى أُقَرِّرَ فيه أَمْرًا وأَجْعَلَهُ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ ! »

قالَ جَعْفَرٌ البَرْمَكِيُّ : « سَمْعًا وطاعَةً . »

صاحَتْ بَدْرُ البُدورِ بدَوْرِها : « فَلْيَأْذَنْ لي أميرُ الْمُؤْمِنينَ أنْ أذْهَبَ مَعَهُمْ . »

« إنَّ هَذِهِ مَواقِفُ لا تَحْتَمِلُها النِّساءُ . »

« لَنْ أَسْتَطيعَ أنْ أبْقى هُنا وحَياةُ زَوْجي فيَ خَطَرٍ . إذا لَمْ أَسْتَطِعْ أنْ أعيشَ مَعَهُ فَلَيْسَ أقَلَّ مِنْ أنْ أموتَ مَعَهُ ! »

« نِعْمَ الوَفاءُ والإخْلاصُ ! اِذْهَبي مَعَهُمْ ولَنْ يُخَيِّبَ اللهُ رَجاءَكِ . »

سَعِدَ الوالي مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيّ أيَّما سَعادَةٍ بالهَدِيَّةِ الثَّمينَةِ الَّتي وَصَلَتْهُ مِنْ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ، وكانَ قَدْ شاوَرَ وُزَراءَهُ فَصارَحوهُ بِقَوْلِهِمْ : « لَعَلَّ هَذِهِ الهَدِيَّةَ كانَتْ لِلوالي الجَديدِ . »

لَكِنَّ الزَّيْنِيَّ لَمْ يَكُنْ يَسْتَريحُ إلا لِرَأْيِ وَزيرِهِ الْمُفَضَّلِ الْمُعينِ بْنِ ساوي ، الَّذي كَرَّرَ عَلى مَسامِعِهِ مَوْقِفَهُ مِنْ عَلِيّ نورِ الدّينِ : « لَقَدْ كانَ مِنَ الْمُناسِبِ قَتْلُهُ وَقْتَ قُدومِهِ ؛ فَهُوَ مَنْبَعُ مَتاعِبَ وقَلاقِلَ لا يَنْضُبُ . ويَكْفي أَنَّهُ عادَ لاغْتِصابِ كُرْسِيِّ الوِلايَةِ مِنْكَ بَعْدَ أن اعْتَقَدْنا كُلُّنا أَنَّهُ ماتَ أَوْ غَرِقَ في البَحْرِ ، وبَعْدَ أَنْ نِلْتُ عَلى يَدَيْهِ مِنَ الإهاناتِ ما لَمْ يَمْسَسْني مِثْلُهُ مِنْ قَبْلُ . ومُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ فَقَدْنا الكَثيرَ مِنْ تَبْجيلِنا واحْتِرامِنا في عُيونِ الرَّعِيَّةِ ! وها هُوَ الآنَ قَدْ عادَ لِيُجْهِزَ عَلى البَقِيَّةِ الباقِيَةِ مِنْ مَكانَتِنا الَّتي قَضَيْنا العُمْرَ كُلَّهُ في الحِفاظِ عَلَيْها ! »

ومَضَتْ عَيْنا الوالي بِعَزْمٍ افْتَقَدَهُ مُنْذُ عَوْدَةِ عَلِيّ نورِ الدّينِ ، وقالَ لِوَزيرِهِ وقَدِ اسْتَرْخى في كُرْسِيِّهِ : « و اللهِ ،

لَقَدْ ذَكَّرْتَني بِهِ ، انْزِلْ وأحْضِرْهُ واضْرِبْ عُنُقَهُ !»

فانْتَفَضَ الوَزيرُ في نَشْوَةٍ عارِمَةٍ : « سَمْعًا وطاعَةً . كَما أَرْجو أنْ تَأْذَنَ لي أنْ أُنادِيَ في الْمَدينَةِ : ‹‹ مَنْ أرادَ أنْ يَتَفَرَّجَ عَلى ضَرْبِ رَقَبَةِ عَلِيِّ نورِ الدّينِ بْنِ خاقان فَلْيَأْتِ إلى القَصْرِ . ››»

« افْعَلْ ما تُريدُ ؛ فَقَدْ آنَ الأوانُ لِنَتَخَلَّصَ مِنْ هَذِهِ القَلاقِلِ حَتّى نَتَفَرَّغَ لإدارَةِ شُئونِ الوِلايَةِ . »

هَبَطَ الوَزيرُ عَلى دَرَجاتِ السُّلَّمِ الْمَرْمَرِيَّةِ وهُوَ يَكادُ يَطيرُ مِنَ الفَرَحِ والنَّشْوَةِ ؛ لَقَدْ آنَ الأَوانُ لِلانْتِقامِ مِنْ غَريمِ العُمْرِ وابْنِ غَريمِ العُمْرِ .

ضَجَّتْ طُرُقاتُ البَصْرَةِ ومَيادينُها بِالطُّبولِ والنِّداءاتِ الْمُدَوِّيَةِ ، وهَبَطَ النّاسُ مِنْ مَنازِلِهِمْ وقَدِ ارْتَدى بَعْضُهُمُ الثِّيابَ السَّوْداءَ حُزْنًا وبُكاءً عَلى عَزيزِهِمُ الَّذي عادَ لِيَحْكُمَ وِلايَتَهُمْ بِأَمْرِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ؛ فَكانَتِ النَّتيجَةُ أنْ أُلْقِيَ بِهِ في السِّجْنِ انْتِظارًا لِضَرْبِ رَقَبَتِهِ . فَقَدْ أَخْبَرَ السَّجّانُ قُطَيْطٌ كُلَّ الأَصْدِقاءِ والجيرانِ والْمَعارِفِ والأقارِبِ بِحِكايَتِهِ الَّتي كانَتْ عَلى كُلِّ لِسانٍ . وهِيَ حِكايَةٌ

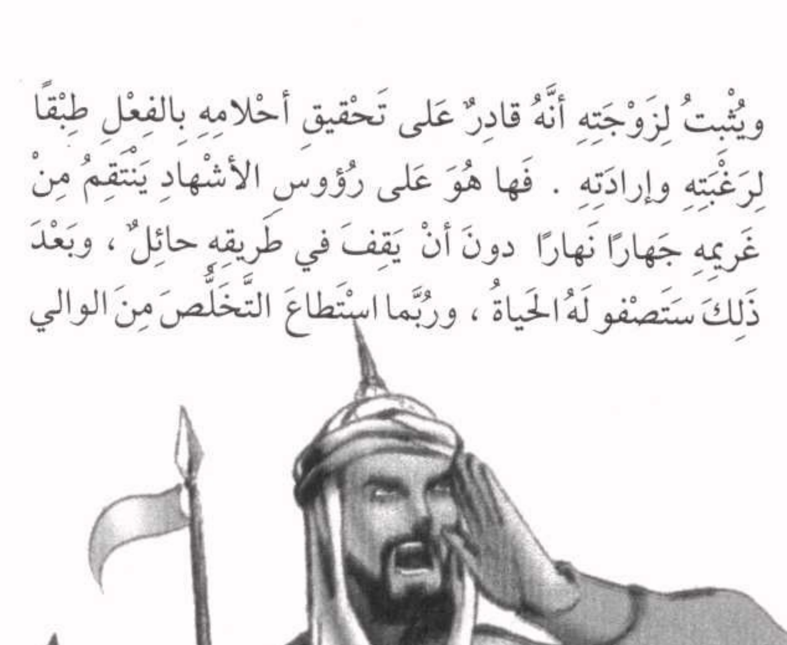
صَدَّقَها الجَميعُ لأنَّهُمْ لَمْ يَعْهَدوا في عَلِيّ نور الدّين الكَذِبَ والغِشَّ والخِداعَ والوِشايَةَ والاغْتِيابَ ، وغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الرَّذائِلِ الَّتي ارْتَبَطَتْ بِاسْمِ الْمُعين بْنِ ساوي .

كانَتِ الطُّبولُ تُقْرَعُ والنِّداءاتُ يُطْلِقُها الْمَماليك ، الَّذينَ ساروا بِخُوَذِهِمُ النُّحاسِيَّةِ وسُيوفِهِمُ الْمُعَلَّقَةِ في أَحْزِمَتِهِمْ . ولَمْ يَجِدِ النّاسُ طَريقَةً لِلاحْتِجاجِ والتَّعْبيرِ عَنْ رَأْيِهِمْ وحُزْنِهِمْ سِوى رَفْعِ بَعْضِ الأَعْلامِ السَّوْداءِ . وتَسابَقَ البَعْضُ لِيَأْخُذوا لَهُمْ أَماكِنَ لِيَتَفَرَّجوا فيها .

أَمّا في السِّجْنِ فَقَدْ نَزَلَ الوَزيرُ الْمُعينُ بْنُ ساوي ومَعَهُ عَشَرَةُ مَماليكَ ، وكانَتِ السَّعادَةُ طافِرَةً مِنْ عَيْنَيْهِ الحالِمَتَيْنِ بِانْتِقامٍ لَمْ يَحْدُثْ لَهُ مَثيلٌ مِنْ قَبْلُ . لَقَدْ جاءَ اليَوْمُ الَّذي سَيَنْتَزِعُ فيهِ الشَّوْكَةَ الَّتي آلَمَتْهُ طَويلاً ، ويَكْسِرُها إلى الأَبَدِ ،



ويُثْبتُ لِزَوْجَتِهِ أنَّهُ قادِرٌ عَلى تَحْقيقِ أحْلامِهِ بالفِعْلِ طِبْقًا لِرَغْبَتِهِ وإرادَتِهِ . فَهَا هُوَ عَلى رُؤوسِ الأشْهادِ يَنْتَقِمُ مِنْ غَريمِهِ جَهارًا نَهارًا دونَ أنْ يَقِفَ في طَريقِهِ حائِلٌ ، وبَعْدَ ذَلِكَ سَتَصْفو لَهُ الحَياةُ ، ورُبَّما اسْتَطاعَ التَّخَلُّصَ مِنَ الوالي





مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمانَ الزَّيْنِيِّ والتَّرَبُّعَ مَكانَهُ عَلى كُرْسِيِّ وِلايَةِ البَصْرَةِ عِنْدَما يَجِدُهُ الخَليفَةُ أقْوى وأَشْجَعَ رَجُلٍ في البَصْرَةِ كُلِّها ، وإنْ كانَ هُوَ الآنَ الحاكِمَ الفِعْلِيَّ لِلْبَصْرَةِ والزَّيْنِيِّ مُجَرَّدُ أداةٍ و وَسيلَةٍ في يَدِهِ .

بَلَغَ المُعينُ بْنُ ساوي بابَ الزِّنْزانَةِ ومَعَهُ المَماليكُ العَشَرَةُ ، فَأَدّى لَهُ السَّجّانُ قُطَيْطٌ التَّحِيَّةَ سائِلاً إيّاهُ : « ماذا تَطْلُبُ ، يا مَوْلانا الوَزيرَ ؟»

فَأَمَرَهُ في صَرامَةٍ وكِبْرِياءَ وعُنْجُهِيَّةٍ : « أَحْضِرْ هَذا اللَّئيمَ . »

أجابَهُ السَّجّانُ مُتَظاهِرًا بِالاشْمِئْزازِ مِنَ السَّجينِ والاحْتِقارِ لَهُ : « إنَّهُ في أقْبَحِ حالٍ مِنْ كَثْرَةِ ما ضَرَبْتُهُ ! لَنْ تَحْتَمِلَ مَنْظَرَهُ لِمُدَّةٍ طَويلَةٍ ، يا مَوْلانا الوَزيرَ !»

« لَقَدْ رَأَيْتُهُ مُتَسَوِّلاً مُرْتَدِيًا أسْمالاً بالِيَةً مِنْ قَبْلُ ! هَيّا نَفِّذْ ما أَمَرْتُكَ بِهِ !»

« لَكِنَّ جِلْدَهُ الآنَ أصْبَحَ أسْمالاً بالِيَةً بَعْدَ أنِ اهْتَرَأَتْ مَلابِسُهُ تَمامًا . »

صاحَ فيهِ مُنْذِرًا : « نَفِّذْ ما أمَرْتُكَ بِهِ الآنَ وإلا . . . »

« أمْرُكَ ، يا مَوْلانا الوَزيرَ . »

دَخَلَ السَّجّانُ فَوَجَدَ عَلِيّا نورَ الدّينِ رابطَ الجَأْشِ ، فَظَنَّ أنَّهُ لا يَعْلَمُ شَيْئًا عَمّا يَدورُ في الخارِجِ . نَزَعَ مِنْهُ ثِيابَهُ النَّظيفَةَ وألْبَسَهُ ثَوْبَيْنِ مُتَّسِخَيْنِ ، فَسَأَلَهُ عَلِيٌّ بِهُدوءٍ زادَ مِنْ إكْبارِهِ لَهُ : « هَلْ دَنَتْ ساعَتي ؟»

« عِلْمُ السّاعَةِ عِنْدَ اللهِ . »

« لَقَدْ صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ للهِ ودَعَوْتُ أنْ يَغْفِرَ زَلَّتي وأنْ يُنْقِذَني حَتّى لا تَتَشَرَّدَ بَدْرُ البُدورِ مِنْ بَعْدي . كَفاها ما جَرى لَها بَعْدَ وَفاةِ أبيها وبَعْدَ إفْلاسي !»

« هَيّا بِنا حَتّى لا يَدْخُلَ الوَزيرُ ويَرى مَلابِسَكَ النَّظيفَةَ !»

« وأنا لا أريدُ أنْ أتَسَبَّبَ لَكَ في مَتاعِبَ أكْثَرَ مِنْ هَذا . »

نَزَلَ السَّجّانُ بِعَلِيٍّ نورِ الدّينِ إلى الوَزيرِ الَّذي اغْتاظَ عِنْدَما رَأى عَدُوَّهُ في مِشْيَتِهِ الشّامِخَةِ و وِقْفَتِهِ الصّامِدَةِ ، وهُوَ يَقولُ لَهُ بِصَوْتٍ لَمْ يَهْتَزّ :

« هَلْ أمِنْتَ الدَّهْرَ ؟ هَلْ دانَتْ لَكَ الدُّنْيا في النِّهايَةِ؟

اِعْلَمْ ، يا وَزيرُ ، أنَّ اللهَ (سُبْحانَهُ وتَعالى) هُوَ الفَعّالُ لِما يُريدُ . إيّاكَ أنْ تَظُنَّ أنَّكَ أنْتَ الَّذي حَدَّدْتَ لي ساعَتي ، فَاللهُ (عَزَّ و جَلَّ) هُوَ الَّذي يُحَدِّدُ ساعَةَ كُلٍّ مِنّا ، ورُبَّما كانَتْ ساعَتُكَ قَبْلَ ساعَتي وأنْتَ لا تَدْري ! الْمُهِمُّ أنْ تَأْتِيَ ساعَةُ الإنْسانِ وهُوَ في سَلامٍ مَعَ خالِقِهِ . فَالعِبْرَةُ لَيْسَتْ بِطولِ الحَياةِ !»

صَرَخَ الوَزيرُ في وَجهِهِ : « يا عَلِيُّ ، أ تُخَوِّفُني بِهَذا الكَلام ؟ هَلْ نَسيتَ تَمْزيقَ ثِيابي وإسالَةَ دَمي ، أيُّها الصُّعْلوكُ ؟ لَقَدْ جاءَ اليَوْمُ الَّذي أضْرِبُ فيهِ رَقَبَتَكَ رَغْمَ أنْفِ أهْلِ البَصْرَةِ الْمَخْدوعينَ في نُعومَتِك الثُّعْبانِيَّةِ . »

« كَفاكَ غُرورًا ! فَأَنْتَ لا تَدْري ما الَّذي يُمْكِنُ أنْ يَقَعَ بَعْدَ لَحْظَةٍ مِنَ الآنَ »!

صاحَ الوَزيرُ في غِلْمانِهِ الْمَماليكِ آمِرًا إيّاهُمْ : « احْمِلوهُ عَلى ظَهْرِ بَغْلٍ وسيروا بِهِ في طُرُقاتِ الْمَدينَةِ ؛ حَتّى يَراهُ الجَميعُ لِتَجْعَلوا مِنْهُ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ . فَهَذا أقَلُّ جَزاءٍ لِمَنْ يُزَوِّرُ مَكْتوبًا عَلى الخَليفَةِ إلى السُّلْطانِ !»

أشْفَقَ الغِلْمانُ الْمَماليكُ عَلى عليّ نورِ الدّينِ مِنْ هَذا

الْمَصير الْمُهينِ الَّذي لا يَسْتَحِقُّهُ أبدًا ، فَاقْتَرَحَ كَبيرُهُمْ عَلى الوَزير : « دَعْنا نَرْجُمْهُ ونُقَطِّعْهُ ولَوْ تروحُ أرْواحُنا ، ونَكونُ بِذَلِكَ قَدْ حَقَّقْنا لَكَ رَغْبَتَكَ دونَ أيَّةِ قَلاقِلَ . فَالْمَوْتُ السَّريعُ أفْضَلُ لَنا ولَهُ . »

عادَ الوَزيرُ إلى صِياحِهِ الصّاخِبِ : « ومَنْ قالَ ، يا غَبيُّ ، إنِّي أُريدُ لَهُ مَوْتًا سَريعًا ؟»

تَحَوَّلَ الْمُعينُ بْنُ ساوي إلى إعْصارٍ كاسِحٍ في حِقْدِهِ وتَشَفّيهِ وانْتِقامِهِ ، فَلَمْ يَجْرُؤْ أنْ يَقِفَ في طَريقِهِ أحَدٌ . فَقَدْ أمَرَ بِتَجْهيزِ عَرَبَةٍ فارِهَةٍ بِالْخُيولِ الْمُطَهَّمَةِ كَيْ يَسيرَ خَلْفَ البَغْلِ الحامِلِ لِعَلِيّ نور الدّين ، الَّذي أجْلَسوهُ عَلَيْهِ بِحَيْثُ كانَ وَجْهُهُ في مُواجَهَةِ ذَيْلِ البَغْلِ و وَجْهِ الْمُعينِ ابْنِ ساوي القابِعِ خَلْفَهُ في عَرَبَتِهِ الفاخِرَةِ وقَد اضْطَجَعَ بَيْنَ الحَشايا الحَريرِيَّةِ الْمُتْخَمَةِ بِريشِ النَّعام . لَمْ يَبْدُ عَلى وَجْهِ عَلِيّ نور الدّين أيُّ أثَرٍ لِلذُّلِّ أوْ لِلْمَهانَةِ ، بَلْ رَأى في عُيونِ البُسَطاءِ وَميضَ التَّعاطُفِ والحُبِّ والعَجْزِ عَنْ إنْقاذِهِ ، فَكانوا يُلَوِّحونَ لَهُ بِأيْديهِمْ لَكِنَّ ذِراعَيْهِ الْمُقَيَّدَتَيْنِ إلى ظَهْرِهِ وإلى سَرْجِ البَغْلِ مَنَعَتاهُ مِنَ الرَّدِّ .

وفي نِهايَةِ الْمَطافِ بَدَتْ أبراجُ قَصْرِ الولايَةِ القابعِ في الْمَيْدانِ الكَبيرِ ، حَيْثُ اكْتَظَّ البَشَرُ ، وأنْزَلوا عَلِيّاً نورَ الدّينِ مِنْ عَلى ظَهْرِ البَغْلِ دونَ أنْ يَفُكّوا ذِراعَيْهِ الْمُقَيَّدَتَيْنِ مِنَ الخَلْفِ ، وجَعَلوهُ على مِنَصَّةِ الإعْدامِ . وتَقَدَّمَ مِنْهُ السَّيّافُ قائِلاً بِصَوْتٍ جَلْجَلَ مَعَ سُكونِ الجَماهيرِ : « أنا عَبْدٌ مَأمورٌ ، فَإنْ كانَ لَكَ حاجَةٌ فَأَخْبِرْني بها حَتّى أقْضِيَها لَكَ ، فَإنَّهُ ما بَقِيَ مِنْ عُمْرِكَ إلا قَدْرُ ما يُخْرِجُ الوالي وَجْهَهُ مِنَ النّافِذَةِ . »

عِنْدَئِذٍ نَظَرَ عَلِيّ نورُ الدّينِ يَميناً وشِمالاً ثُمَّ طَلَبَ شَرْبَةَ ماءٍ . وانْهَمَرَتِ الدُّموعُ وعَلا النَّحيبُ مِنَ العُيونِ الشّاخِصَةِ والشِّفاهِ الْمُرْتَعِشَةِ ، وقامَ السَّيّافُ وأخَذَ شَرْبَةَ ماءٍ ناوَلَهُ إيّاها ، فَنَهَضَ الوَزيرُ مِنْ مَكانِهِ وضَرَبَ إناءَ الْماءِ بِيَدِهِ ، وصاحَ عَلى السَّيّافِ وأَمَرَهُ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عَصَّبَ عَيْنَيْ عَلِيّ نورِ الدّينِ قائِلاً :

« مَوْلايَ الوَزيرَ ، لَنْ أسْتَطيعَ أنْ أضْرِبَ عُنُقَهُ قَبْلَ أنْ يُخْرِجَ مَوْلايَ الوالي وَجْهَهُ مِنَ النّافِذَةِ ! »

شَخَصَتِ العُيونُ الباكِيَةُ إلى النّافِذَةِ ، والقُلوبُ واجِفَةٌ

والحُلوقُ جافَّةٌ ، لَكِنَّ الوالي لَمْ يُخْرِجْ وَجْهَهُ مِنَ النّافِذَةِ . وسارَ الْمُعينُ بْنُ ساوي حَتّى وَقَفَ تَحْتَ النّافِذَةِ وكانَ عَلى وَشْكِ أنْ يُناديَ عَلى الوالي ، لَكِنَّهُ تَماسَكَ في آخِرِ لَحْظَةٍ حَتّى لا يُشْعِرَ النّاسَ أنَّهُ هُوَ الَّذي يُحَرِّكُ الوالي ويُصْدِرُ إلَيْهِ الأوامِرَ . اِنْتَظَرَ عَلى أحَرَّ مِنْ جَمْرٍ لَكِنَّ الوالي لَمْ يُطِلَّ بِطَلْعَتِهِ البَهِيَّةِ .

هَجَمَتِ الجَماهيرُ الْمُتَكاثِفَةُ عِنْدَ البابِ الخَلْفِيِّ لِلقَصْرِ عَلى الْمَماليكِ والحُرّاسِ ، ودارَتْ مَعْرَكَةٌ ، واقْتَحَمَتِ الجَماهيرُ البابَ الخَلْفِيَّ ، وبَلَغَتْ قاعَةَ الوالي الَّذي حاوَلَ الهَرَبَ والاخْتِباءَ ، لَكِنَّ الأذْرُعَ الْمُمْتَدَّةَ والأيْديَ الْمُتَشَنِّجَةَ والأصابِعَ الْمَعْروقَةَ قَبَضَتْ عَلَيْهِ ، وأوْدَعَتْهُ حُجْرَةً جانِبِيَّةً أغْلَقَتْ بابَها ورابَطَتْ أمامَهُ .

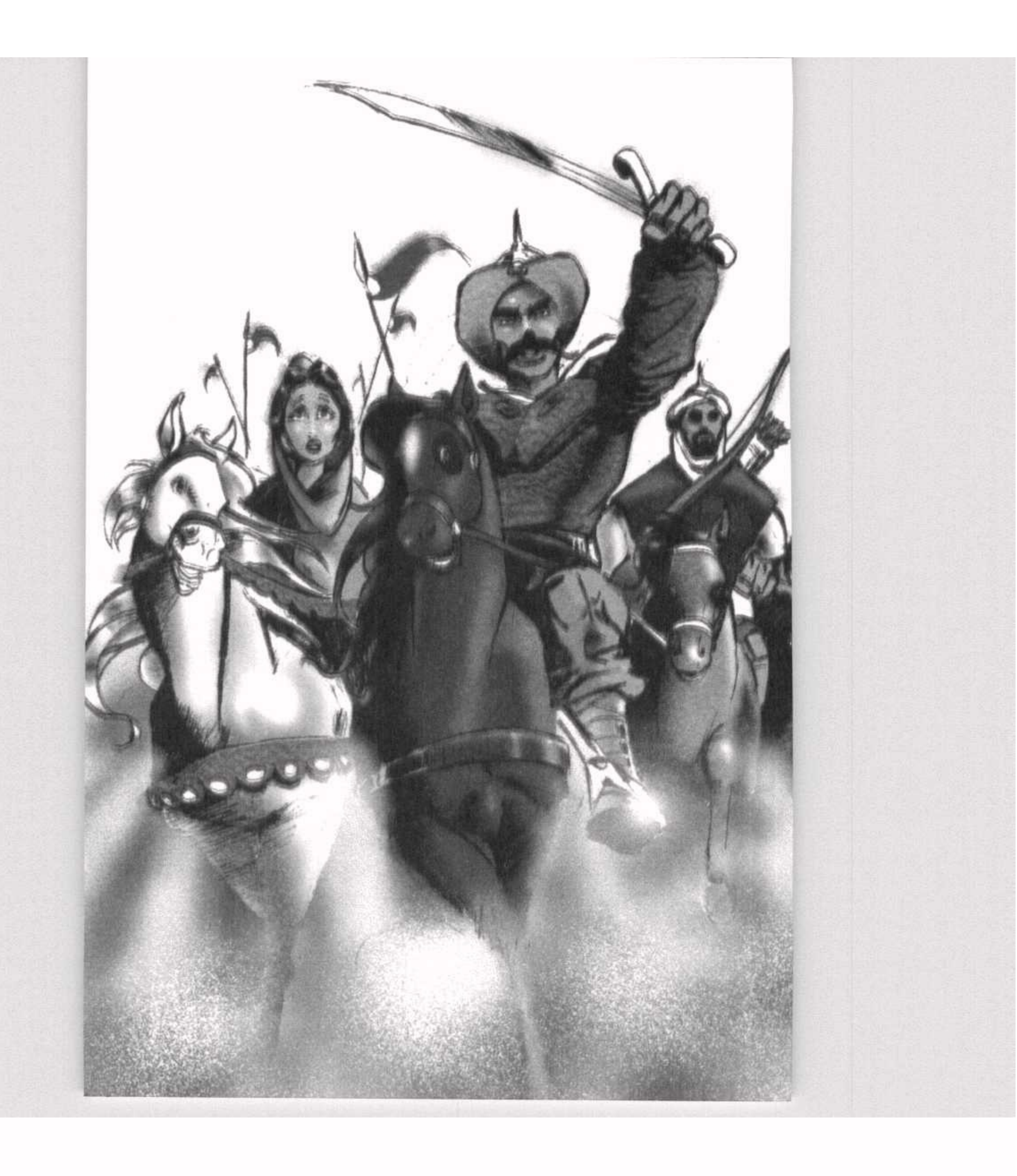
لَمْ يُطِقِ الْمُعينُ بْنُ ساوي صَبْرًا ، فَهُرِعَ صاعِدًا القَصْرَ مِنَ البَوّابَةِ الأماميَّةِ ، لَكِنَّهُ فوجِئَ بِالجَماهيرِ الَّتي تَسُدُّ الْمَدْخَلَ ، فَأَسْرَعَ لاهِثًا إلى ثُكُناتِ الحُرّاسِ والْمَماليكِ الَّذينَ بَدَوْا مُتَرَدِّدينَ ، لَكِنَّهُ هَدَّدَهُمْ بِضَرْبِ الرِّقابِ إذا لَمْ يُحَرِّروا الوالي مِنْ أسْرِهِ ، بَلْ وأغْراهُمْ بِأكْياسِ الذَّهَبِ

الَّتي في انْتِظارِهِمْ عِنْدَما يُنَفِّذونَ أوامِرَهُ . وسَرْعانَ ما تَمَّ تَحْريرُ الوالي الَّذي انْطَلَقَ وَسَطَ حُرّاسِهِ صَوْبَ النّافِذَةِ لِيُصْدِرَ أمْرَهُ بِضَرْبِ رَقَبَةِ عَلِيّ نورِ الدّين . وأطَلَّ مِنَ النّافِذَةِ وإلى جوارِهِ الْمُعينُ بْنُ ساوي ، الَّذي صاحَ في السَّيّافِ يَأْمُرُهُ بِتَنْفيذِ حُكْمِ الْمَوْتِ ، لَكِنَّ السَّيّافَ ظَلَّ شاخِصًا لِفَمِ الوالي الَّذي لَمَحَ غُبارًا قَدْ عَلا مَلأ الجَوَّ ، فَلَمْ يَمْلِكْ سِوى أنْ يَقول : « انْظُروا ما الخَبَرُ ؟»

لَكِنَّ الْمُعينَ بْنَ ساوي قالَ بِنَبَراتٍ مُتَهَدِّجَةٍ : « فَلْنَضْرِبْ عُنُقَ هَذا أوَّلاً . ألا يَكْفي ما جَرى ؟!»

اِسْتاءَ الوالي لِلَهْجَةِ وَزيرِهِ الَّذي تَجاوَزَ حُدودَهُ وقالَ لَهُ : « اِصْبِرْ أنْتَ حَتّى نَنْظُرَ الخَبَرَ . »

وكانَ ذَلِكَ الغُبارُ غُبارَ جَعْفَرِ البَرْمَكِيِّ وَزيرِ الخَليفَةِ ومَنْ مَعَهُ . وكُلَّما اقْتَرَبَتِ الخُيولُ الْمُتَسارِعَةُ ، كانَتِ الرُّؤْيَةُ تَتَّضِحُ أكْثَرَ فَأكْثَرَ . كانَتْ بَدْرُ البُدورِ على فَرَسِها إلى يَمينِ جَعْفَرَ وقَد ارْتَدَتْ مَلابِسَ الفُرْسانِ ، الَّذينَ ناهَزَتْ كَوْكَبَتُهُمُ الْمِئَةَ فارِسٍ .



صاحَ الوالي : « إنَّهُ جَعْفَرٌ البَرْمَكِيُّ وَزيرُ الخَليفَةِ بِنَفْسِهِ . لا بُدَّ أنَّهُ جاءَ لأمْرٍ جَلَلٍ !»

اِسْتَدارَتِ الوُجوهُ لِتَرى كَوْكَبَةَ الفُرْسانِ قَدِ اتَّجَهَتْ نَحْوَ نافِذَةِ الوالي ؛ وإذْ بِجَعْفَرٍ البَرْمَكِيِّ يَصيحُ فيهِ :

« إيّاكَ أنْ يَكونَ قَدْ جَرى أيُّ مَكْروهٍ لِعَلِيٍّ نور الدّين ، لأنَّكَ سَتَهْلِكَ الآنَ لَوْ كُنْتَ السَّبَبَ في هَلاكِهِ !»

صاحَ الوالي في السَّيّافِ : « اِكْشِفْ عَنْ وَجْهِهِ وأطْلِقْ سَراحَهُ فَوْرًا !»

نَفَّذَ السَّيّافُ الأمْرَ في لَمْحِ البَصَرِ لِيَجِدَ عَلِيّ نورُ الدّين زَوْجَتَهُ بَدْرَ البُدورِ جالِسَةً عَلى فَرَسِها ، وقَدِ امْتَلأتْ عَيْناها بالشَّوْقِ والحُبِّ . وهَبَطَ جَعْفَرٌ مِنْ عَلى فَرَسِهِ ومَعَهُ فُرْسانُهُ . سارَ إلى عَلِيّ نور الدّين بَعْدَ أنْ أفْسَحَتْ لَهُ الجَماهيرُ الطَّريقَ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها . سَلَّمَ عَلَيْهِ واحْتَضَنَهُ سائِلاً إيّاهُ : « مَنِ الَّذي أرادَ مَوْتَكَ ؟ ومَنِ الَّذي وَقَفَ في طَريقِ وِلايَتِكَ ؟»

نَظَرَ عَلِيّ نورُ الدّينِ إلى أعْلى فَإذْ بِالْمُعينِ بْنِ ساوي

يَخْتَفي مِنَ النّافِذَةِ ؛ مُحاوِلاً الهَرَبَ في ذُعْرٍ مَجْنونٍ ، لَكِنَّ الحُرّاسَ أَمْسَكوا بِهِ ، وقادوهُ إلى حَيْثُ كانَ عَلِيّ نورُ الدّينِ وجَعْفَرٌ الَّذي أَمَرَ السَّيّافَ بِتَقْييدِهِ في مَكانِ عَلِيّ نورِ الدّينِ دونَ أنْ يَعْصِبَ عَيْنَيْهِ . كانَ الْمُعينُ يَنْتَفِضُ هَلَعًا ، في حينَ أَخَذَ جَعْفَرٌ السَّيْفَ مِنْ يَدِ السَّيّافِ وأعْطاهُ لِعلِيٍّ قائِلاً : « خُذْ هَذا السَّيْفَ واضْرِبْ بِهِ رَقَبَةَ عَدُوِّكَ . »

أخَذَهُ عَلِيٌّ وتَقَدَّمَ مُتَرَدِّدًا إلى الْمُعينِ بْنِ ساوي دونَ أنْ يَرْفَعَ السَّيْفَ ودونَ أنْ يَدْرِيَ ماذا يَقولُ ، فَبادَرَهُ الْمُعينُ بِلَهْجَةٍ مُتَسَوِّلَةٍ وشِفاهٍ مُرْتَعِشَةٍ : « أنا عَمِلْتُ بِمُقْتَضى طَبيعَتي ! فَاعْمَلْ أنْتَ بِمُقْتَضى طَبيعَتِكَ . »

كانَ عَلِيّ نورُ الدّينِ عَلى وَشْكِ أنْ يَرْفَعَ السَّيْفَ ، لَكِنَّهُ أَنْزَلَ ذِراعَهُ قائِلاً لِلوَزيرِ جَعْفَرٍ : « غَلَبَني ، يا سَيِّدي الوَزيرَ ، فَإنَّ طَبيعَتي لا تَعْرِفُ القَتْلَ والإعْدامَ ، بَلْ هِيَ عاشِقَةٌ لِلْحَياةِ والبَشَرِ والخَيْرِ . »

أجابَهُ الوَزيرُ في : « اتْرُكْهُ ؛ فَأَمْرُهُ مَوْكولٌ لِلسَّيّافِ . »

ثُمَّ نَظَرَ إلى الوالي الَّذي ظَلَّ مُتَشَبِّثًا بِقاعِدَةِ النّافِذَةِ في ذُهولٍ ، وأمَرَهُ قائِلاً : « انْزِلْ ، يا مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمانَ

الزَّيْنِيّ ، فَلَيْسَ مِنْ حَقِّكَ أنْ تُطِلَّ مِنْ هَذا القَصْرِ ! تَعالَ هُنا لِتَشْهَدَ حُكْمَ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ عَلَيْكَ . »

لَمْ يُخْفِ الوالي السّابِقُ نَبَراتِهِ الْمُرْتَعِشَةَ وقالَ : « سَمْعًا وطاعَةً ، يا سَيِّدي الوَزيرَ . »

ثُمَّ أَسْرَعَ بالهُبوطِ وقَدْ شُدَّتْ إِلَيْهِ العُيونُ كُلُّها إلى أنِ امْتَثَلَ أمامَ الوَزيرِ قائلاً : « أَمْرُ مَوْلايَ أميرِ الْمُؤْمِنينَ . »

« سَنُلْقي بِكَ في السِّجْنِ إلى أنْ نَهْتَدِيَ إلى العِقابِ الْمُناسِبِ لَكَ . »

نَكَّسَ الوالي رَأْسَهُ حُزْنًا وكَمَدًا ، ثُمَّ نودِيَ عَلى السَّجّانِ الَّذي جاءَ وقَيَّدَ ذِراعَيْهِ مِنَ الخَلْفِ . لَمْ يُصَدِّقْ قُطَيْطٌ ما كانَ يَفْعَلُهُ وهُوَ يَتَبادَلُ مَعَ عَلِيّ نورِ الدّين نَظَراتٍ مُشِعَّةً بِوَميضِ الْمَعاني والْمَواعِظِ والعِبَرِ .

قَبَضَ قُطَيْطٌ عَلى الوالي السّابِقِ ، وقادَهُ أمامَهُ إلى السِّجْنِ . ونَظَرَ عَلِيّ نورُ الدّين إلى الوَزيرِ جَعْفَرِ البَرْمَكِيِّ مُشيرًا إلى بابِ القَصْرِ : « فَلْيَتَفَضَّلْ سَيِّدي الوَزيرُ لِيَسْتَريحَ مِنْ عَناءِ السَّفَرِ ، فَقَدْ حَلَلْتَ أَهْلاً ونَزَلْتَ سَهْلاً ، وحَظِيَتِ البَصْرَةُ بِتَشْريفِكُمْ لَها . »

« لا بُدَّ مِنَ العَوْدَةِ فَوْرًا إلى بَغْدادَ لِطَمْأَنَةِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ أنَّ العَدْلَ أخَذَ مَجْراهُ ، وأنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ في البَصْرَةِ . »

« لَيْسَ قَبْلَ تَناوُلِ الطَّعامِ والشَّرابِ والرّاحَةِ لِبَعْضِ الوَقْتِ . فَأَهْلُ البَصْرَةِ هُمْ أَهْلُ الكَرَمِ والضِّيافَةِ . »

« وأَنا لا أسْتَطيعُ أنْ أرُدَّ طَلَبًا لِمَنِ اخْتارَهُ مَوْلايَ أميرُ الْمُؤْمِنينَ والِيًا عَلى البَصْرَةِ ، ولا لأهْلِ البَصْرَةِ الكِرامِ . »

هَبَطَتْ بَدْرُ البُدورِ مِنْ عَلى فَرَسِها لِتَنْضَمَّ إلى زَوْجِها ، الَّذي سارَ إلى جوارِ جَعْفَرِ البَرْمَكِيِّ صاعِدينَ دَرَجاتِ سُلَّمِ القَصْرِ حَتّى بَلَغوا شُرْفَتَهُ ذات الأعْمِدَةِ الذَّهَبيَّةِ الَّتي الْتَفَّتْ حَوْلَها عيدانُ الأزْهارِ والوُرودِ الَّتي نَفَحَتْ بِأَريجِها الأنْفاسَ . اسْتَداروا صَوْبَ الجَماهيرِ الْمُحْتَشِدَةِ في الفِناءِ أَسْفَلَ الشُّرْفَةِ ، ورَفَعوا أيْدِيَهُمْ بِالتَّحِيَّةِ ، فَدَوَّى الهُتافُ في أرْجاءِ الفِناءِ ، ورَدَّدَتْ جُدْرانُ القَصْرِ صَداهُ ، بِحَياةِ أميرِ الْمُؤْمِنينَ و وَزيرِهِ جَعْفَرِ البَرْمَكِيِّ و والي البَصْرَةِ الجَديدِ وابْنِها الأمينِ عَلِيّ نورِ الدّينِ .

* * *

تَسَلَّلَ شعاعُ الفَجْرِ مِنْ شُرْفَةِ قَصْرِ الْمَلِكِ شَهْرَيار ، الَّذي تَرَكَ نَفْسَهُ نَهْبًا لِلإثارَةِ والتَّشْويقِ ، مُحاوِلاً طَرْدَ بَوادِرِ النُّعاسِ الَّتي حَطَّتْ عَلى جُفونِهِ ، لَكِنَّ الحِكايَةَ كانَتْ قَدْ بَلَغَتْ مُنْتَهاها ، وقَدْ أدْرَكَ شَهْر زادَ الصَّباحُ ، فَسَكَتَتْ عَنِ الكَلامِ الْمُباحِ .